

الإمام أبو حامد الغزالي

اسرار المخلوقات



منشورات دار المعارف للطباعة والنشر
سوسة / تونس

ترجمة المؤلف

هو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي ، أبو حامد ،
حجة الاسلام ، الفيلسوف المتصوف ، أحد أعظم أعلام الفكر الاسلامي،
ومن كبار أئمة أهل البحث والنظر في علوم الدنيا والدين .

ولد في الطابران (قصبة طوس ، بخراسان) سنة 450 هـ (1058 م) .
وكان والده رجلا فقيرا صالحا ، يغزل الصوف ويبيعه في دكانه بطوس .
ويجب مجالسة الفقهاء والمتصوفة . وكان حينما يجلس اليهم يتأثر بأقوالهم
ويتضرع الى الله أن يرزقه ولدا صالحا مثلهم ، ويجعله فقيها واعظا . وقبل
أن يتوفى الغزالي الوالد ، أوصى به وبأخيه أحمد الى صديق له متصوف،
وزوده بما لديه من مال لينفقه عليهما ، قائلا :

« إن لي لتأسفا عظيما على عدم تعلم الخط ، واشتبهى استدراك ما
فاتني في ولدي هذين » .

واشرف عليهما الوصي المتصوف ، وعلمهما الخط ، وأدبهما الى أن
نفذ المال ، وكان الوصي فقيرا أيضا ، فنصح الأخوين بأن يدخلوا مدرسة
ياكلان فيها ويأويان ، ثم يتعلمان في أثناء ذلك ، ففعلوا . فكان هذا
الصوفي الصالح السبب في سعادتهما وعلو درجتهما . وكثيرا ما كان أبو
حامد يحكي هذا ويقول : « طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون (العلم)
إلا لله » .

ثابر أبو حامد على دراسة الفقه وهو ما يزال في ريعان الصبا ، فقد أخذ طرفا منه في طوس (سنة 465 هـ - 1073 م) على الامام أحمد بن محمد الراذكاني (نسبة الى راذكان من قرى طوس) ، ثم انتقل الى جرجان ، وهو دون العشرين ، ودرس على الامام أبي القاسم اسماعيل بن مسعدة الاسماعيلي . ثم عاد الى طوس ، فمكث بها ثلاث سنين ، ارتحل بعدها الى نيسابور (سنة 473 هـ) ولازم إمام الحرمين ، عبد الملك الجويني ، أعلم المتأخرين من أصحاب الشافعي ، ودرس عليه الفقه والأصول ، والجدل والمنطق ، والكلام والفلسفة ، حتى « أحكم كل ذلك ، وفهم كلام أرباب هذه العلوم ، وتصدى للرد على مبطلهم وبطلال دعاويهم » .

ويرى المؤرخون ان هذه الفترة من حياة الغزالي كانت أخصب فترات حياته ، ففيها ابتدأ بالتأليف والكتابة ، وفيها بدأت الشكوك تتطرق الى علمه . يقول الدكتور كريم عزقول : « كما أنه بدأ في هذه الحقبة لا قبلها ، كما أرى ، يعتمد التفكير الشخصي والنظر الحر . وان ما يبرر اعتقادي هذا ، الذي أشارك فيه المستشرق الهولندي « دي بور » فهو أن إمام الحرمين المنتمي الى الأشعرية ، كان يعتمد في اثبات القضايا التي كان يدرسها ، التفكير الشخصي والأدلة العقلية ، أكثر مما كان يعتمد التقليد والأدلة النقلية ، ويتغاطى علوما مشبوهة في نظر المتكلمين ، كالفلسفة .

ومما لا شك فيه ان تتلمذ الغزالي على إمام الحرمين ، كان له تأثير كبير على تطوره الروحي ، فقد كان الجويني من كبار أئمة أهل العلم في عصره ، نظارا ، أصوليا ، متكلما ، جريئا في تقدمه ، « سلك طريق البحث والنظر والتحقيق ، بحيث أربى على كثير من المتقدمين ، وأسوى تصرفات الأولين » . « ومن قاس طريقته بطريقة المتقدمين في الفروع وأنصف ، أقر

بعلو منصبه ، ووفور تبعه ونصبه في الدين » . وبهذا الصدد يقول الدكتور كريم عزقول : « وقد رأينا الغزالي ، قبل تتلمذه على الجويني يحفظ غيبا ما يتعلمه . فلا يمكن والحالة هذه ، أن يكون اعتري فكره ذلك الانقلاب الا أبان دراسته على هذا الامام ، أو بعدها بقليل . وفي هذا نلمس التأثير الكبير الذي كان لامام الحرمين ، على تطور الغزالي ، ولا شك ان الغزالي كان يشمر بخير هذا التأثير ، اذ لم يفصله عن استاذه ، رغم موقف هذا منه غير المشجع ، الا موت الامام سنة 1085 م ، ولم يدرس على استاذ غيره فيما بعد »

ولما انتهت الحياة بإمام الحرمين (عام 478 هـ - 1085 م) خرج الغزالي الى المعسكر ، بلاط الوزير نظام الملك (وزير السلطان ملكشاه السلجوقي) في ظاهر نيسابور ، وكان مجلسه مجلس أهل العلم ومحط رجالهم ، فناظر الغزالي الأئمة العلماء في مجلسه ، وظهر كلامه عليهم ، فأعجب نظام الملك بالغزالي وبمقدرته في المناظرة . وكان ذلك سببا في اقباله عليه ، وتعيينه أستاذا في المدرسة النظامية في بغداد سنة 484 هـ - 1091 م ، وكان حينئذ في الرابعة والثلاثين من عمره .

وسرعان ما اشتهر الغزالي في بغداد ، فقد « غلبت حششته الامراء والملوك والوزراء » على ما في « الطبقات الكبرى » للسبكي ، و « صار بعد إمامة خراسان إمام العراق » على حد تعبير عبد الغفار بن اسماعيل الفارسي .

ولكن الغزالي ، رغم هذه الشهرة ، لم يتمتع بمقامه في بغداد مدة طويلة . لقد كان في تمطش الى درك حقائق الأمور من أول أمره وريضان عمره ، وكان البحث وراء الحقيقة غريزة وفطرة وضمتا في جبلته . وفي هذه الحقبة من حياته في نظامية بغداد ، بدأت تظهر ثمار دراسته على

شيخه إمام الحرمين ، فانصرف الى المطالعة والبحث والاستقصاء ، بمقابلة جريئة ناقدة ، لاعتناق فكره من رابطة التقليد التي كانت لا تزال مستحكمة فيه ، حتى بلغ درجة الشك فيما يرى ويسمع ويقرأ ، وفيما يقول ويعتقد .

وقد بلغت شكوك الغزالي درجة جعلته يفكر بالتخلي عن التدريس ، وبمغادرة بغداد . وكان ، اذ ذاك ، منغمسا في المال والجاه والشهرة ، وبدأ الصراع في نفسه بين « شهوات الدنيا » من جانب ، وبين « دواعي الآخرة » من جانب آخر ، ولم يستقر رأيه على رفض شهوات الدنيا الا بعد تردد ، ومجاهدات نفسية عنيفة . ويصف الغزالي حاله فيقول : « فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريبا من ستة أشهر ، أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة . في هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار الى الاضطرار ، اذ قتل الله على لساني حتى أعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوما واحدا تطيبها لقلوب المختلفة (الآتين لسماع الدروس) وكان لا ينطق لساني بكلمة ولا أستطيعها البتة . ثم أورثت هذه العقلة في اللسان حزنا في القلب بطل معه قوة الهضم وقرم الطعام والشراب ، فكان لا تنساغ لي شربة ولا تنهضم لي لقمة . وتعدي ذلك الى ضعف القوى حتى قطع الأطباء طمعهم في العلاج » . ثم يقول : « ثم لما أحسست بعجزتي ، وسقط بالكلية اختياري ، التجأت الى الله تعالى ، التجاء المضطر ، الذي لا حيلة له ، فأجابني الذي يجب المضطر اذا دعاه ، وسهل على قلبي الاعراض عن الجاه ، والمال ، والأولاد ، والأصحاب .

ونصح بعض الأطباء الغزالي بالسياحة ، فخرج من بغداد في ذي القعدة من سنة 488 هـ (نوفمبر 1095) قاصدا الحج الى بيت الله الحرام ، ووصل دمشق في مطلع سنة 489 هـ . وخلال عشرة أعوام ، أخذ

ينتقل من دمشق الى القدس الى الخليل الى القاهرة ، ومن القاهرة الى الاسكندرية . وكان يقضي أوقاته في الخلوة والرياضة والمجاهدة : اشتغالا بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى . وكان يزور المساجد ويأوي الى القفار ، وينزوي في المغارات ، ويتعرض لأنواع المشاق والمحن . ثم سار الى الحجاز لاداء فريضة الحج ، وزيارة الرسول (صلعم) .

ورجع الغزالي الى بغداد ، ولكنه استمر في اعتزاله التدريس . وفي ذي الحجة من سنة 499 هـ (سبتمبر (أيلول) 1106 م) أقنعه الوزير فخر الملك بالتدريس في نظامية نيسابور ، ولكنه لم يلبث طويلا ، فبعد سنة ، أو نحو من ذلك ، قُتِلَ الوزير فخر الملك ، فغادر الغزالي نيسابور الى طوس ، ملازما بيته ، مشغلا بالتفكير والوعظ والتدريس ، واستمر الى أن مات سنة 505 هـ (1111 م) عن سن بلغت به الخامسة والخمسين . قال أخوه أحمد : « لما كان يوم الاثنين وقت الصبح ، توضع أخشي أبو حامد ، وصلى ، وقال : علي بالكفن ، فأخذه وقبّله ووضع على عينيه وقال : سماعا وطاعة للدخول على الملك ، ثم مدّ رجله ، واستقبل القبلة ومات » .

ألف الغزالي أكثر من مائتي كتاب ، عدّ منها الدكتوران جميل صليبا وكامل عياد 228 كتابا ، عدا الكتب المشكوك في صحة نسبتها اليه . كما عدّ الزبيدي منها ما يقرب من ثمانين كتابا ورسالة . والسبكي ما يقرب من ستين كتابا .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل نعمته في رياض جنان المقرين، وخص بهذه الفضيلة من عباده المتفكرين، وجعل التفكير في مصنوعاته وسيلة لرسوخ اليقين في قلوب عباده المستبصرين، استدلوا عليه سبحانه بصنعة فعملوه، وتحققوا أن لا إله إلا هو فوحده، وشاهدوا عظمته وجلاله فتزهوه، فهو القيم بالقسط في جميع الأحوال، وهم الشهداء على ذلك بالنظر والاستدلال، فعلموا أنه الحليم القادر العليم، كما قال في كتابه الكريم، شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وإمام المتقين وشفيع المذنبين محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه وشرف وكرم إلى يوم الدين.

(أما بعد) يا أخي وفقك الله توفيق العارفين، وجمع لك خير الدنيا والدين، أنه لما كان الطريق إلى معرفة الله سبحانه والتعظيم له النظر في مخلوقاته والتفكير في عجائب مصنوعاته، وفهم الحكمة في أنواع مبتدعاته، وكان ذلك هو السبب لرسوخ اليقين، وفيه تفاوت درجات المتقين، وضعت هذا الكتاب منبها لعقول أرباب الألباب، بتعريف وجوه من الحكم والنعم التي يشير إليها معظم آي الكتاب، فإن الله

تعالى خلق العقول وكمل هداها بالوحي وأمر أربابها بالنظر في مخلوقاته ، والتفكير والاعتبار بما أودعه من العجائب في مصنوعاته ، لقوله سبحانه :

(قل انظروا ماذا في السموات والأرض) (1)

وقوله :

(وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون) (2)

إلى غير ذلك من الآيات البينات والدلالات الواضحات التي بفهمها والترقي في اختلاف معانيها تعظم المعرفة بالله سبحانه التي هي سبب السعادة ، والفوز بما وعده عباده من الحسنى وزيادة ، وقد بوبته أبوابا يشتمل كل باب على ذكر وجه الحكمة من النوع المذكور فيه من الخلق وذلك حسب ما تنبّهت له عقولنا فيما أشرنا إليه مع أنه لو اجتمع جميع الخلائق على أن يذكروا جميع ما خلق الله سبحانه وتعالى وما وضع من الحكم في مخلوق واحد من مخلوقاته لعجزوا عن ذلك وما أدركته الخلائق من ذلك ما وهب الله سبحانه لكل منهم وما سبق له من ربه سبحانه والله المسؤول أن ينفعنا به برحمته وجوده .

1 (يونس 101

2 (الانبياء 30

باب التفكير في خلق السماء وفي هذا العالم
قال الله تعالى :

(أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما
لها من فروع) (3)

وقال تعالى سبحانه :

(الله خلق سبع سموات) (4)

اعلم رحمك الله أنك إذا تأملت هذا العالم بفكرك وجدته
كالبيت المبني المعد فيه جميع ما يحتاج إليه فالسما مرفوعة
كالسقف والأرض ممدودة كالسطح والنجوم منصوبة
كالمصابيح والجواهر مخزونة كالذخائر (5) وكل شيء من ذلك
معد مهياً لشأنه .

والإنسان كالمالك (6) للبيت المخول لما فيه فضروب النبات
لآربه وأصناف الحيوانات في مصالحه فخلق سبحانه السماء
وجعل سبحانه لونها أشد الألوان موافقة للأبصار وتقوية لها

(3) ق 6

(4) الطلاق 12

(5) مفردها ذخيرة وهي ما يعتز به الإنسان ويذخره لهم الأمور

(6) إشارة إلى تسخير الأشياء للإنسان واستخلافه فيها

ولو كانت أشعة أو أنوارا لأضرت الناظر إليها فإن النظر إلى الخضرة والزرقة موافق للأبصار وتجدد النفوس عند رؤية السماء في سعتها نعيما وراحة لاسيما إذا انفطرت (7) نجومها وظهر نور قمرها.

والملوك تجعل في سقوف مجالسها من النقش والزينة وما يجد الناظر إليه به راحة وانسراحا لكن إذا داوم الناظر إليه نظره وكرره مله وزال عنه ما كان يجده برؤيته من البهجة والانسراح بخلاف النظر إلى السماء وزينتها فإن الناظر إليها من الملوك فمن دونهم إذا ضجروا من الأسباب المضجرة لهم يلجؤون إلى ما يشرحهم من النظر إلى السماء وسعة الفضاء.

وقد قالت الحكماء بحذوك عندك من الراحة والنعيم في دارك بمقدار ما عندك فيها من السماء (8)

(7) انفطرت : تمايزت

(8) ان المسلمين مطالبون شرعا بالتفكير في خلق السموات والأرض وهذا التفكير يخرج صاحبه من دنيا الأجساد إلى عظمة القدرة في علوم التشييد والانتقان والتي عندما ينظر إليها لا يرى فيها صدور ولا شقوق. وان هذه الدقة وهذا الانتقان علامة وضعها الخالق سبحانه على طريق البشرية لتكون نبراسا لهم في اتقان أعمالهم مهما صغرت. ولقد قال الميرت اينشتين صاحب (نظرية النسبية) (ان اعظم خطره يمكن أن تحيىش بها النفس البشرية. هى تلك التي يستشعرها الانسان عند

وفيهما أنها حاملة لنجومها المرصعة ولقمرها وبحركتها تسير الكواكب فيهندي بها أهل الآفاق وفيها طرق لا تزال توجد آثارها من المغرب والمشرق ولا توجد مجرة ولا مقبلة صورة نور وقيل أنها أنجم صغار متكافئة مجتمعة يهندي بها على السير من ضلّ وتحير في أي جهة كان فيقصدها وقيل إنها المشار إليها في قوله تعالى :

(والسماء ذات الحجب (١٨) قيل الحجب الطرق وقيل ذات الزينة .

فهي دلائل واضحة تدل على فاعلها وصنعة محكمة صمدية تدل على سعة علم باريها وأمور ترتيبها كل يدل على ارادة منشيها فسبحان القادر العالم المريد .

وقيل في النظر إلى السماء عشر فوائد تنقص الهم وتقلل الوسواس وتزيل وهم الخوف وتذكر بالله وتنشر في القلب التعظيم لله وتزيل الفكر الردية وتنفع من مرض السوداء وتسلي المشتاق وتؤنس المحبين وهي قبلة دعاء الداعين .

الوقوف في روعة أمام هذا الخفاء الكوني والاضلام . ان الذي لا نجش نفسه لهذا ولا تتحرك عاطفته حي ميت . انه الخفاء الذي لا نستطيع أن نشق حجه . والاضلام الذي لا نستطيع ان نطلع فجره . ومع ذلك فنحن ندرك أن وراءه حكمة احكم ما تكون وجمالا أجمل ما يكون (تفسير الآيات الكونية / عبد الله شحاته / الاعتصام 266

8أ) الذرات 7

(باب في حكمة الشمس)

قال الله سبحانه :

(وجعل الشمس سراجا) (9)

إعلم أن الله سبحانه خلق الشمس (10) لأمر لا يستكمل علمها إلا الله وحده فالذي ظهر من حكمته فيها أن جعل حركاتها لاقامة الليل والنهار في جميع أقاليم الأرض .

ولولا ذلك لبطل أمر الدين أولولاه كيف كان يكون الناس يسعون في معاشهم ويتصرفون في أمورهم والدنيا مظلمة

(9) نوح 16

السراج نوره من ذاته . والضياء ما أضاء لك . وشعاع الشمس مركب من ألوان النور السبعة التي ترى في قوس السحاب فهو سبعة أضواء . وقد كشف ترقى العلوم الفلكية عن ذلك وكان الناس يجهلون في عصر التنزيل (المصدر السابق)

(10) هذه الشمس ما هي إلا نجم يسبح في ملكوت جبار السموات والأرض . يقول الشهيد سيد قطب في الظلال (السموات والأرض خلق عجيب هائل . دقيق . هذه الأرض التي نعيش عليها ويشاركنا ملايين من الأجناس والأنواع . ثم لا تبلغ من حجمها شيئا . وهذه الشمس هي واحدة من مائة مليون في المجرة الواحدة . وفي الكون مجرات كثيرة وبين المجرة والمجرة التي تليها نحو خمسين مائة ألف سنة ضوئية (السنة الضوئية تقدر بعشرين مليون مليون من الأميال)
الظلال حـ 23

عليهم وكيف كانوا يتهنون بالعيش مع فقدهم لذة النور ومنفعته ولولا ضياء نورها ما انتفع بالابصار ولم تظهر الألوان .

وتأمل غروبها وغيبتها عن طلعت عليهم وما في ذلك من الحكمة ولولاها لم يكن للخلق هدو وراحة أبدانهم وخود حواسهم وانبعاث القوة الهاضمة (11) لهضم طعامهم وتفنيد الغذاء ثم كان الحرص يحلهم ، على مداومة العمل ومطاولته على ما يعظم مكانته في أبدانهم .

فان أكثر الحيوانات لولا دخول الليل ما هدوا ولا قروا من حرصهم على نيل ما ينتفعون به .

ثم كانت الأرض تحمى بدوام شروق الشمس واتصاله حتى يحترق كل ما عليها (12) من الحيوانات والنباتات فهي

11) لعله يشير إلى الطاقة الحرارية التي تنبعث من الشمس فتؤثر في الكائنات .

12) ان قوة الاحراق التي تمتلكها الشمس تثير في النفس عظمة الاتقان الالهي . وان في قوة حرارتها لتذكره لمن كان له قلب بيوم التناد . . يوم زفرات جهنم أعادنا الله منها . قوة الاحراق التي تمتلكها الشمس تبلغ درجة حرارته ستة آلاف درجة مئوية للسطح الخارجي بينما تزايد في اتجاه مركزها إلى حوالي عشرين مليون درجة مئوية . والشمس تشع أضواءها في الفضاء بقوة تعادل خمسمائة وثمانين ألف مليون مليون قوة حصان في الثانية الواحدة .

بطلوعها في وقت وغروبها في وقت النور بمنزلة سراج لأهل بيت يستضاء به وقتا ويغيب وقتا ليهدوا ويقروا وهي في حرها بمنزلة النار يطبخ بها قهول الدار، حتى إذا كمل طبخهم واستغنوا عنها أخذها من جاورهم وهو يحتاج إليها فينتفع بها حتى إذا قضي حاجته سلمها لآخرين .

فهي أبدا منصرفة في منافع أهل الأرض يتضاد النور والظلمة على تضادهما متعاونين متظافرين على ما فيه صلاح العالم وقوامه وإلى هذه القضية الإشارة بقوله :

(قل رأيتم أن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة (13))

ثم بتقدمها وتأخرها تستقيم الفصول فيستقيم أمر النبات والحيوان . . ثم انظر إلى سيرها (14) في فلكها في مدة سنة وهي تطلع كل يوم وتغرب بسير آخر سخرها لها بتقدير خالقها . .

(13) القصص 71

(14) كان مفكرو العصر القديم يعتقدون أن الشمس ثابتة وإن الكون يدور حولها . ومن هؤلاء الفيشاغورثيون . ثم جاء مفكرو العصر الحديث ليعلنوا أن الشمس كوكب غير ثابت . . وتلك النتيجة أعلن عنها القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا (والشمس تجري لمستقر لها)

فلولا طلوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار ولما عرفت
المواقيت ولو انطبق الظلام على الدوام لكان فيه الهلاك لجميع
الخلق فانظر كيف جعل الليل سكنا ولباسا والنهار معاشا
وانظر إلى ايلاجه الليل في النهار والنهار في الليل وإدخاله
الزيادة والنقصان عليهما على الترتيب المخصوص .

وانظر إلى امالة سير الشمس حتى اختلف بسبب ذلك
الصيف والشتاء فإذا انخفضت من وسط السماء برد الهواء
وظهر الشتاء وإذا استوت وسط السماء القيظ وإذا كانت فيما
بينهما اعتدل الزمان فيستقيم بذلك أمر النبات والحيوان باقامة
هذه الأزمنة الأربعة من السنة .

وأما ما في ذلك من المصلحة ففي الشتاء تعود الحرارة في
الشجر والنبات فيتولد فيها مواد الثمار ويستكثف الهواء فينشأ
منه السحاب والمطر وتشتد أبدان الحيوان وتقوى أفعال
الطبيعة وفي الربيع تتحرك الطبائع في المواد المتولدة في الشتاء
فيطلع النبات باذن الله وينور الشجر وتهيج أكثر الحيوانات
للتناسل وفي الصيف يخمر الهواء فينضج الثمار وينحل فضول
الأبدان ويحجف وجه الأرض فتهايم لما يصلح لذلك من الأعمال
وفي الخريف يصفو الهواء فترتفع الأمراض ويمتد الليل فيعمل
فيه بعض الأعمال وتحسن فيه الزراعة وكل ذلك يأتي على

تدريج وبقدر حتى لا يكون الانتقال دفعة واحدة إلى غير ذلك مما يطول لو ذكر.

فهذا مما يدل على تدبير الحكيم العليم وسعة علمه . ثم تفكر في تنقل الشمس في هذه البروج (15) لأقامة دور السنة وهذا الدور هو الذي يجمع الأزمنة الأربعة الشتاء والصيف والربيع والخريف وتسير فيها على التمام وفي القدر من دوران الشمس تدرك العُلات والثمار وتنتهي غاياتها ثم تعود فتستأنف وقت السير وبمسيرتها تكمل السنة ويقوم حساب السنة على الصحة على التاريخ بتقدير الحكيم العليم .

تأمل اشراق الشمس على العالم كيف دبره تبارك وتعالى فإنها لو بزغت في موضع واحد لها لا تعدوه لما وصل شعاعها إلا إلى جهة واحدة (16) وخلت عنها جميع الجهات فكانت الجبال والجدران تحجبها عنها فجعلها سبحانه تشرق بطلوعها أول

15 (البروج هي مجموعة النجوم المعروفة بالدلو، الحوت، الحمل، الثور، الجوزاء، الأسد، السرطان، العذراء، الميزان، العقرب، القوس، الجدي .

وقال مجاهد وقتادة : البروج هنا هي النجوم والكواكب . ومنهم من قال هي منازل النجوم والكواكب التي تنتقل فيها في مدارها والرأي الأخير هو الذي يعتقده المؤلف .

16 (اشارة إلى حركة الأرض حول الشمس ثم حركة المجرة كاملة

النهار من المشرق فيعم شروقها ما يقابلها من جهة المغرب ثم لا تزال تدور وتغشى جهة بعد أخرى حتى تنتهى إلى الغرب على ما استتر عنها أول النهار فلا يبقى موضع حتى يأخذ بقسطه منها .

ثم انظر إلى مقدار الليل والنهار كيف وقتها سبحانه على ما فيه صلاح العالم فصار بمقدار لو تجاوزه لأضر بكل ما على وجه الأرض من حيوان ونبات أما الحيوان فكان لا يهدأ ولا يقرب ما دام يجد ضوء النهار وكانت البهائم لا تمسك عن الرعي فيؤول أمرها إلى تلفها وأما النبات فتدوم عليها حرارة الشمس وتوهجها فيجف ويحترق وكذلك الليل لو امتد مقداره أيضا لكان معيقا لأصناف الحيوان عن الحركة والتصرف كالذي يحدث على النبات إذا كان الموضع لا تقع الشمس عليه .

(باب في خلقة القمر والكواكب)

قال الله سبحانه وتعالى :

(تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا
وقمرا منيرا) *

اعلم وفقك الله أن الله سبحانه وتعالى لما جعل الليل لبرد
الهواء وهدو الحيوان وسكونه فلم يجعله سبحانه ظلمة داجية
لا ضياء فيها البتة فكان لا يمكن أن يعمل عملا فيه وربما
احتاج الناس إلى بعض أعمالهم في الليل أمّا لضرورة أو لضيق
وقت عليهم من النهار وقد يقع ذلك لشدة حرارة أو لغيره من
الأسباب .

فكان ضوء القمر في الليل من جملة ما تحتاج إليه في المعونة
على ذلك فجعل طلوعه في بعض الليالي (17) ونقص نوره عن
نور الشمس وحرها لئلا ينشط الناس في العمل نشاطهم لكل
ما به يتمتعون من الهدو والقرار فيضرب ذلك بهم وجعل في
الكواكب جزءا من النور يستعان به إذا لم يكن ضوء القمر .

* الفرقان 61 ، 62

(17) معروف أن ضوء القمر انعكاس لضوء الشمس

وجعل في الكواكب زينة السماء وأنسا وانشراحا لأهل الأرض فانظر ما لطف هذا التدبير جعلت للظلمة دولة ومدة للحاجة إليها وجعل خلالها شيء من النور ليكمل به ما احتيج إليه .

ثم في القمر علم الشهور والسنين وهو صلاح ونعمة من الله ثم في النجوم مآرب أخرى فإن فيها دلائل وعلامات على أوقات كثيرة لعمل من الأعمال كالزراعة والغراسة (١٨) والاهتداء بها في السفر في البر والبحر وأشياء مما تحدث من الأنواء والحر والبرد وبها يهتدي السيارون في ظلمة الليل وتقطع القفار الموحشة واللجج الهائلة كما قال تعالى :

(وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر) (١٩) مع ما في تردها في السماء مقبلة ومدبرة ومشرقة ومغربة من البهجة والنضارة وفي تصريف (٢٠) القمر خاصة

(١٨) الزراعة للنباتات ذات المحاصيل الدورية كالقمح وغيره أما الغراسة فللأشجار .

(١٩) الأنعام ٩٧ .

(٢٠) ان عملية تصريف القمر تلك هي اختلاف مناظره بالنسبة لأهل الأرض جاء في ميزان تفسير القرآن نقلا عن تفسير الآيات الكونية فلأن نوره مكتسب من الشمس تستنير بها نصف كرته تقريبا ، وما يقرب من النصف الآخر الذي لا يقابل الشمس مظلم . ثم يتغير موضع =

في استهلاكه ومحاقه وزيادته ونقصانه واستنارته وكسوفه كل ذلك دلالات على قدرة خالقها المصرف لها هذا التصرف لاصلاح العالم.

ثم انظر دوران الفلك بهذه الكواكب في كل يوم وليلة دورانا سريعا وسيرها معاوم مشاهد غانا نشاهدها طالعة وغاربة (21) ولولا سرعة سيرها لما قطعت هذه المسافة البعيدة في أربعة وعشرين ساعة فلولا تدبير الباري سبحانه بارتفاعها حتى خفى عنا شدة مسيرها في فلكها لكانت تختطف بتوهجها

= الاستنارة نتيجة الدوران . ومن هنا يظهر لأهل الأرض في صورة هلال ثم عندما ينسط عليه النور يتبدر ثم لا يزال ينقص (نتيجة الدوران والانحرافات الثلاثة . انحراف الأرض عن الشمس والقمر : وانحراف القمر عن الشمس) ثم يعود إلى ما كان عليه أولا .

(تفسير الآيات الكونية 255)

(21) النجوم الطالعة والغاربة والتي يمكن مشاهدتها بالعين المجردة لا تزيد عن ثلاثة آلاف نجم من أية بقعة على الأرض وفي أي وقت . بينما يمكن مشاهدة أكثر من تسعة آلاف نجم على مدار السنة فوق سطح الأرض كلها (وتختلف النجوم في أحجامها وفي ألوانها وفي درجات حرارتها ويعتقد العلماء أن النجوم التي في السماء تختلف اختلافا كبيرا في أعمارها وأنها تمر بدورة تشبه دورة الحياة على الأرض . فهي تبدأ نجوما زرقاء حارة ثم تصير بيضاء فصفراء ثم تصير في آخر الأمر نجوما باردة حمراء والنجوم كلها تتحرك في الفضاء الكوني في اتجاهات ثابتة محددة .)
(تفسير الآيات الكونية ص 279) .

لسرعة حركاتها كالذي يحدث أحيانا من البروق إذا توالى في الجو فانظر لطف الباري سبحانه في تقدير سيرها في البعد البعيد (22) لكي لا يحدث من سيرها حادث لا يحتمل فهي مقدرة في جميع الأحوال على قدر الحاجة .

وانظر في هذه التي تظهر في بعض السنة وتحتجب في بعضها مثل الثريا والجوزاء والشعري فإنها لو كانت كلها تظهر في وقت واحد لم يكن لشيء منها دلالة على جهالة تعرفها الناس ويهتدون بها فكان في طلوع بعضها في وقت دون الآخر ما يدل على ما ينتفع به الناس عند طلوعه مما يصلحها ولذلك جعلت بنات نعش ظاهرة لا تغيب لضرب من المصلحة فإنها بمنزلة الاعلام التي يهتدي بها الناس للطرق المجهولة في البر والبحر فإنها لا تغيب لضرب من المصلحة فإنها بمنزلة الاعلام التي يهتدي بها الناس للطرق المجهولة في البر والبحر فإنها لا تغيب ولا تتواري .

ثم انظر لو كانت واقفة لبطلت الدلالات التي تكون من تنقلات المتنقلة منها ومصيرها في كل واحد من البروج كما

(22) اقرب النجوم إلى الأرض يبعد 4 ، 4 سنة ضوئية بينما يبعد عنا النجم القطبي بمسافة 400 سنة ضوئية ويبلغ أبعد النجوم التي يمكن مشاهدتها بالعين المجردة نحو مليون سنة ضوئية . المصدر السابق .

يستبدل على أشياء تحدث في العالم بتنقل الشمس والقمر في منازلها ولو كانت متتقلة كلها لم يكن لمسيرها منازل تعرف ولا رسم يقاس عليه لأنه إنما يعرف مسير المتتقلة منها بتنقلها في البروج الدائنية كما يعرف سير السائر على الأرض بالمنازل التي يجتازها فقد صار هذا الفلك شمس وقمر وبروج تدور على هذا العالم دوراناً دائماً (23) في الفصول الأربعة من السنة لصالح ما فيه من حيوان ونبات وغير ذلك بتقدير العزيز العليم .

ومن عظيم الحكمة خلق الافلاك التي بها ثبات هذا العالم على نهاية من الاتقان لطول البقاء وعدم التغير فقد كفى الناس التغير في هذا الأمر الجليل الذي ليس قدرة ولا حيلة

23) تتابع الفصول الأربعة نتيجة دوران الكواكب حول الشمس وكذا دوران الشمس حول نفسها . وتختلف سرعة الكواكب باختلاف مسافتها حول الشمس . بمعنى أن الكوكب يكون في أقصى سرعة له عندما يكون قريباً من الشمس وتقل بالتدريج بابتعاده عنها . وحركة الكواكب يحكمها توازن محكم بين قوتين متضاربتين هما قوة جذب الشمس والقوة الناشئة عن دوران الكوكب . وهذا التعادل هو الذي يمكن الكواكب من أن تبقى في افلاكها ثابتة . ويتعاقب الليل والنهار على هذه الكواكب في مدد متفاوتة حسب حجمها وسرعة دورانها كل منها حول محورها وعلى كوكب الأرض بسبب هذا الدوران تتتابع فصول السنة عليها نتيجة لميل محور الأرض في دورانها حول الشمس . المصدر السابق .

في اصلاحه لو نزل به تغير يوجب ذلك التغير أمرا في الأرض
إذ قوام الأرض (24) مرتبط بالسما فالأمر في جميع ذلك ماض
على قدرة البارئ سبحانه ولا يختل ولا يعتل ولا يتخلف منه
شيء عن ميقاته بصلاح العالم فسبحانه العليم القدير.

(24) ان كوكب الأرض السخر للدوران في الفضاء هو كرة من الصخر
يبلغ متوسط قطرها 12740 كيلو متر ومتوسط محيطها 40042
كيلومتر ومساحة سطحها 710 مليون كيلو ويحيط على الأرض وفي
مياهاها وتحت هوائها 47 مليون نوع من أنواع الحياة النباتية ونحو مليون
نوع من أنواع الحياة الحيوانية .

باب في حكمة خلق الأرض

قال تعالى :

(والأرض فرشناها فنعم الماهدون) (25)

ثم انظر كيف جعل الله الأرض مهادا ليستقر عليها الحيوان فإنه لا بد له من مستقر ولا غناء له عن قوت فجميع الأرض محل للنبات لقوته ومسكن يكتن من الحر والبرد ومدفن فيه ما تؤذي رائحته والجيف والأقذار من اجسام بني آدم وغيرها كما قال سبحانه :

(ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا) (26)

قيل في تفسير هذه الآية هذا القول وغيره ثم ذلل طرقها لتنتقل فيها الخلق لطلب مآربهم فهي موضوعة لبقاء النسل من جميع أصناف الحيوان والحرث والنبات وجعل فيها الاستقرار والثبات كما نبه على ذلك سبحانه وتعالى بقوله :

(أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعا لكم ولأنعامكم) (27)

فأمكن الخلائق بهذا التصرف فيها في مآربهم والجلوس لراحتهم والنوم لهدوهم والانتقال لأعمالهم فإنها لو كانت

25 (الذاريات 48) 26 (المرسلات 25 ، 26) 27 (النازعات 31 ، 32 ، 33 .

رجاجة متحركة لم يستطيعوا أن يتقنوا شيئاً من النبات وجميع الصناعات وكانوا لا يتهنون بالعيش والأرض ترتج بهم من تحتهم واعتبر ذلك بما يصيب الناس في الزلازل ترهيباً للخلق وتخويفاً لهم لعلهم يتقون الله وينزعون عن الظلم والعصيان ، فهذا أيضاً من الحكمة البالغة ثم أن الأرض طبعها الله باردة يابسة بقدر مخصوص أرأيت لو أفرط اليبس عليها حتى تكون بجملتها حجراً صلباً لما كانت تنبت هذا النبات الذي به حياة الحيوانات ولا كان يمكن فيها حرث ولا بناء فجعلها لينة لتهيأ لهذه الأعمال .

ومن الحكمة في خلقها ووضعها أن جعل مهب الشمال أرفع من الجنوب لينحدر الماء على وجه الأرض فيسقيها ويروها ثم يصير إلى البحر في آخر الأمر فأشبه ذلك ما إذا رفع أحد جانبي السطح وخفض الآخر لينحدر الماء عنه (28) ولولا ذلك لبقى الماء مستبحراً على وجه الأرض فيمتنع الناس من أعمالهم وتنقطع الطرق والمسالك بسبب ذلك .

انظر إلى ما خلق الله فيها من المعادن وما يخرج منها من أنواع الجواهر المختلفة في منافعها وألوانها من الذهب والفضة والياقوت والزمرد والبسنتش وأشياء كثيرة من هذه الأحجار

(28) إن انحدر الماء على سطح الأرض ناشئ عن عدم استواء سطحها ، فوجدت بالضرورة انبعاجات في القشرة الأرضية كوّنت القارات وكذلك انخفاضات شكلت قيعان البحار والمحيطات .

الشفافة المختلفة في ألوانها وأنواع آخر مما يصلح لعمال والجمال كالحديد والنحاس والقردير والرصاص والكبريت والزرنيخ والتوتيا والرخام والجبس والنفط وأنواع لو عددت لطلال ذكرها وهو مما ينتفع به الناس وينصرف فيما يصلحهم فهذه نعم يسرها سبحانه لهم لعمارة هذه الدار.

ثم انظر إلى ارادة ايجادته من عمارتها وانتفاع العباد بها لجعلها هشة (29) سهلة بخلاف ما لو كانت على نحو خلق الجبال فلو يبست كذلك لتعذرت فإن الحرث لا يستقيم إلا مع رخاوة الأرض لزراعة الأقوات والثمر وإلا لا يتعدى إذا صلبت الماء إلى الحب مع أن الحب لا يمكن دفنه إلا بعد أن تلين الأرض بالنداءة ويأخذ الورق وهي ضعيفة في ابتدائها في الأرض التربة ويمكن إذاك عملها وتحريكها حتى تشرب ما ينزل عليها من الماء فيخلق الله سبحانه عند ذلك العروق ملتبسة بالثرى حتى يقف الشجر والنبات على ساقه وجعل ما يخلق من العروق يوازن ما يخلق من الفروع.

(29) إن حكمة جعل القشرة الأرضية هشة بحكمة بالغة فإن تركيب الأرض المعقد كما يقول - موريس بوكاي - (لأنها متكونة من طبقة عميقة تسودها درجة حرارة عالية تنصهر فيها الصخور وهي الطبقة التي تحيط بمركز باطن الأرض ومن هذه المنطقة تخرج البراكين) وطبقة سطحية (وهي القشرة الأرضية) وهذه الطبقة باردة ورقيقة فسمكها يتراوح بين خمس وعشرة كيلو مترات) وهذه القشرة هي التي يتخلل منها الماء إلى جذور النباتات ويبحث الانسان فيها ليقيم عمارة حياته .

ومن رحمته في لينها أن ييسر للناس حفر الآبار في المواضع المحتاجة إلى ذلك إذ لو حفرت في الجبال لصعب الأمر وشق .

(وهو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها) (30) .

وقال تعالى : (وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون) (30 أ) .

ومن ذلك ما يستعين به العباد من ترابها ولينها في البناء وعمل اللبن وأواني الفخار وغير ذلك والمواضع التي بنيت فيها الملح والشب والبورق والكبريت وأكثرها تربة رخوة وأيضا أجناس من النبات لا توجد إلا في التراب والرمل دون الأرض المجبلة .

ويخلق فيها كثير من الحيوان لسهولة حفرها فيتخذون فيها مسارب وبيوتا يأوون إليها ومن الحكمة فيها خلق المعادن كما ذكر فقد امتن سبحانه على سليمان عليه السلام بذلك فقال (وأرسلنا له عين القطر) أي سهلنا له الانتفاع بالنعاس وأطلعناه على معدنه وقال امتنانا على عباده :

(وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) (30 ب)

30 (الملك 15 .

30 أ (الحديد 25 .

30 ب (الأنبياء 31 .

والنزول بمعنى الخلق كما قال سبحانه :

(وأنزل لكم من الأنعام) (30 ج) أي خلق وألهمهم استخراج ما فيها من ذهب وفضة وغير ذلك لمنافعهم وما يحتاجون إليه في معاشهم وفي اتخاذ أوانيهم وفي ضبط ما يحتاجون إلى ضبطه وتقويته واتخاذ أنواع من الحجارة النفيسة لتبقى فيها كالزجاج ويتخذون منها أواني لحفظ ما يجعل فيها من الأموال النفيسة لتبقى فيها سليمة لوقت الاحتياج إليها إذ لا غنى لهم عنها .

وكذلك يستخرج من المعادن الاحمال مثل (لذهب والمفيعما) والسادن والتوتيا وغير ذلك من أصناف ينتفعون بها فسبحان المنعم الكريم .

ومن الحكمة البالغة فيها خلق الجبال قال الله تعالى :

(والجبال أرساها متاعا لكم) *

وقال تعالى :

(وجعل فيها رواسي أن تميد بكم) (31)

30 ج (الزمر 39 .

* النازعات 32 .

31 (فصلت 10 ، وهذه الآيات الكريمة دليل قرآني على حركة الأرض ودورانها إذ لا يحيد إلا المتحرك غالبا .

وقال سبحانه :

(وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكنناه في الأرض) (32)

فقد خلق سبحانه فيها الجبال لمنافع متعددة لا يحيط بجميعها إلا الله ، فمن ذلك أن الله تعالى أنزل من السماء المياه ليحيي بها العباد فلو كانت الأرض عارية عن الجبال لحكم عليها الهواء وحر الشمس مع رخاوة الأرض فكانوا لا يجدون المياه إلا بعد حفر وتعب ومشقة فجعل سبحانه الجبال لتستقر في بطونها المياه وتخرج أولا فأول فتكون منها عيون وأنهار وبحار يرتوي بها العباد (33) في أيام القيظ إلى أوان نزول غيث السماء .

ومن الجبال ما ليس في باطنها محل للمياه فجعل الثلج محفوظا على ظاهرها إلى أن يحله حر الشمس فيكون منه انهار وسواق ينتفع بها إلى أوان نزول الغيث أيضا .

32) المؤمنون 18 .

33) إن علاقة الماء بالأرض وعلاقة الاثنين بالانسان علاقة لا انفصام لها يقول بوكاي - ان القرآن يبرز ميزة ثراء الأرض بالماء . تلك الميزة الفريدة في النظام الشمسي على حسب أحسن معطيات المعارف الحديثة ثبوتا فلولا الماء لكانت الأرض كوكبا ميتا مثل القمر - والقرآن يعطي الأهمية الأولى في ذكر الظواهر الطبيعية للأرض ودورة الماء موصوفة فيه بدقة محكمة .

ومنها ما يكون فيه برك يستقر فيها الماء فيؤخذ منها وينتفع به كما ينتفع به من الأجباب (34) ومن منافع الجبال ما ينبت فيها من أنواع الأشجار والعقاقير التي لا توجد الا فيها وما ينبت فيها من أنواع الأخشاب العظيمة فيعمل منها السفن وتعمر منها المساكن وفيها الشعارى التي لا يوجد ما يعظم من الأخشاب الا فيها وكذلك العقاقير اكثرها لا يوجد الا بها وفيها وهذا ينبت مزارع للانعام ومزارع لبنى آدم ومساكن للوحوش ومواضع لاجنح النحل.

ومن منافع الجبال ما يتخذة العباد من مساكن تقيهم الحر والبرد ويتخذون مدافن لحفظ جثث الموتى وقد ذكر الله ذلك فقال :

(وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين) *

ومن فوائدها أن جعلت أعلاما يستدل بها المسافرون على الطرقات في نواحي الأرض ويستدل بها المسافرون في البحار على المين (35) والسواحل، ومن فوائدها أن الفئة القليلة الضعيفة الخائفة من عدوان من لا تطبيقه تتخذ ما يحصنها ويؤمنها ويمنعها من تخافه فتطمئن لذلك وانظر كيف خلق

34 (مفردها جب بضم الجيم وهو البئر.

(الحجر 21 .

35 (لعله جمع ميناء.

اللّٰه فيها الذهب والفضة وقدرهما بتقدير مخصوص ولم يجعل ذلك ميسرا في الوجود والقدر مع سعة قدرته وشمول نعمته كما جعل هذه السعة في المياه وما ذلك إلّا لما سبق في علمه لخلائقه مما هو الأصلح كما أشار إلى ذلك بقوله

(وان من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) *

فسبحان العليم الحكيم .

(باب في حكمة خلق البحر)

قال الله تبارك وتعالى :

(وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا) (36)

الآية إعلم رحمك الله أنه سبحانه وتعالى خلق البحار وأوسع فيها لعظم نفعها فجعلها مكتنفة لأقطار الأرض التي هي قطعة من الأرض المستورة بالبحر الأعظم المحيط بجميع الأرض حتى أن جميع المكشوف من البراري والجبال عن الماء بالاضافة إلى الماء كربوة صغيرة في بحر عظيم .

فاعلم أن ما يخلق في الأرض من الحيوانات بالاضافة إلى ما خلق في البحر كاضافة الأرض إلى البحر وقد شاهدت فيها عجائب ما هو مكشوف منها فتأمل عجائب البحر فإن فيه من الحيوان والجواهر والطيب أضعاف ما نشاهده على وجه الأرض كما أن سعته أضعاف سعة الأرض ولعظم سعته كان فيه من الحيوانات والدواب العظيمة ما إذا أبدت ظهورها على وجه البحر ظن من يراها أنها حشاف أو جبال أو جزائر وما من صنف من أصناف حيوان البر من انسان وطائر وفرس وبقرة وغير ذلك إلا وفي البحر أمثاله في البر وكل منها قد دبره الباري

سبحانه وخلق فيه ما يحتاجه ويصلحه ولو استقصى ذكر ما
يحتويه بعضه لاحتاج إلى وضع مجلدات .

ثم انظر كيف خلق الله اللؤلؤ مدورا في صدف تحت الماء (37)
وأثبت المرجان في جنح صخور في البحر فقال سبحانه :

(يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) *

وذلك في معرض الامتنان وقيل المرجان المذكور في القرآن
هو الرقيق من اللؤلؤ ثم قال :

(فبأي آلاء ربكما تكذبان) *

وآلاؤه تفضله ونعمه ثم انظر ما يقذفه من العنبر (38) وغيره
من المنفوع ثم انظر إلى عجائب السفن وكيف مسكها على
وجه الماء تسير فيها العباد لطلب الأموال وتحصيل ما لهم من
الأغراض جعلها من آياته ونعمته فقال :

(والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس) *

37) افراز بعض الحيوانات الرخوية كالخيار يدافع به عن نفسه ضد
الأجسام الغريبة التي تغزو جسمه .

* الرحمن 22 .

* الرحمن 13 .

38) قيل العنبر افراز بعض الكائنات البحرية ولعله التمساح .

* البقرة 164 .

فجعلها بتسخيره تحملهم وتحمل أثقالهم ويتقلون بها من أقاليم إلى أقاليم لا يمكن وصولهم إليها إلا بالسفن ولو راموا التوصل بغيرها لأدى إلى أعظم المشقات وعجزوا عن نقل ما ينقل من المنقولات إلى ما بعد من البلاد والجهات .

فلما أراد الله سبحانه وتعالى أن يلطف بعباده ويهون ذلك عليهم خلق الأخشاب (39) متخلخلة الأجزاء بالهواء ليحملها الماء ويبقى فيها من الفضاء عن نفسها ما تحمل به الأثقال وألهم العباد اتخاذها سفناً ثم أرسل الرياح بمقادير في أوقات تسوق السفن وتسيرها من موضع إلى موضع آخر ثم ألهم أربابها معرفة أوقات هبوبها وفترتها حتى يسيروا بالرياح التي تحمل شراعها .

ونظر إلى ما يسره سبحانه في خلقه الماء إذ هو جسم لطيف رقيق سيال متصل الأجزاء كأنه واحد لطيف التركيب سريع القبول للقطع حتى كأنه منفصل مسخر للتصرف (40) قابل

(39) يقصد بالأخشاب وسائل النقل البحري .

(40) إن نظرة واحدة على كمية المياه المتجمدة على القطبين تجعلنا طويلاً في تأمل عميق ترى لو قدر لهذا الماء المتجمد أن يسيل فما هي النتيجة . بالقطع سيكون ارتفاع منسوب الماء في البحر والمحيطات الأمر الذي يترتب عليه اغراق مساحات كبيرة وإغراق ما عليها - ولقد رأينا ما ينتج عن فيضانات الهند مثلاً الناتجة عن الأمطار . فكيف يكون الوضع إذا سال الماء المسخر لله والمتجمد على القطبين .

للاتصال والانفصال حتى يمكن سير السفن فيه فالعجب ممن يغفل عن نعمة الله في هذا كله وفي بعضه متسع للفكر.

وكل ذلك شواهد متظاهرة ودلائل متصافرة وآيات ناطقة بلسان حالها مفصحة عن جلال بارتها معربة عن كمال قدرته وعجائب حكمته قائلة أما ترى تصويري وتركيبني وصفائي زمنا واختلاف حالي وكثرة فوائدي أیظن ذو لب سليم وعلق رصین أني تكونت بنفسي أو ابدعني أحد من جنسي بل ذلك صنع القادر القهار العزيز الجبار.

باب في حكمة خلق الماء

قال الله تبارك وتعالى :

(وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون) (41)

وقال عز شأنه :

(أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها إليه مع الله بل هم قوم يعدلون) *

انظر وفقك الله إلى ما من به سبحانه وتعالى على عباده بوجود الماء العذب الذي به حياة كل من على وجه الأرض من حيوان ونبات فلو اضطر الانسان إلى شربة منه ومنع منها لهان عليه أن يبذل فيها ما يمكنه من خزائن الدنيا (42)

(41) الانبياء 30

* النمل 60

(42) ان تحكم الانسان في إنزال ماء المطر يرفضه العلم الحديث - يقول موريس بوكاي - لا يمكن أبدا إسقاط المطر من سحابة لا تحتوي على سمات السحابة القابلة للهطول أو من سحابة لم تصل إلى درجة مناسبة من التطور (النضج) . . . كذلك لا يستطيع الانسان أن يعجل بعملية الهطول . . . ان الحكم في المطر والطقس الجميل ما زال حتى اليوم حلما . . دراسة الكتب المقدسة 203 =

والعجب من غفلة العباد عن هذه النعمة العظيمة وانظر مع شدة الحاجة إليها كيف وسع سبحانه على العباد فيها ولو جعلها بقدر لضاق الأمر فيها وعظم الحرج على كل من سكن الدنيا.

ثم انظر لطافة الماء وقته حتى ينزل من الأرض ويخلخل أجزائها فتغذى عروق الشجر ويصعد بلطفاته بواسطة حرارة الشمس إلى أعالي الشجر والنباتات وهو من طبعه الهبوط (43) ولما كانت الضرورة تدعو إلى شربه لاماعة الأغذية في أجواف الحيوان ليتصرف الغذاء إلى موضعه جعل لشاربه في شربه لذة عند الحاجة إليه وقبولا له ويجد شاربه فيه نعيما وراحة وجعل مزيلا للأدران عن الأبدان والأوساخ عن الثياب وغيره وبالماء يبيل التراب فيصلح للبناء والأعمال وبه يربط كل يابس مما لا يمكن استعماله يابساً وبه ترفق الأشربة فيسوغ شربها وبه تطفأ عادية النار إذ وقدت فيها فلا تلتهب فيه وأشرف الناس منها عليها يكرهون وبه تزول الغصة إذا أشرف

= فعلميا الانسان إذا دفع كل ما يمتلك نظير اسقاط الماء فالنتيجة المنطقية هي الخسارة. ولأن الماء عنصر ثمين في الكون . . كان على المسلمين صلاة الاستسقاء إذا منع المطر. أي الاتجاه نحو القوة الوحيدة التي تملك الماء.

(43) أي أن الماء يسير إلى النبات ضد حركة الجاذبية الأرضية.

صاحبها على الموت وبه يغتسل التعب الكال (44) فيجد الراحة لوقته .

وبه تستقيم المطبوعات وجميع الأشياء التي لا تستعمل ولا تصلح إلا رطبة إلى غير ذلك من مآرب العباد التي لا غنى عنها فانظر في عموم هذه النعمة وسهولة تناولها عن قدرها مع شدة الحاجة إليها فلو ضاقت لتكدرت الحياة في الدنيا فعلم بهذا أن الله تبارك وتعالى أراد بانزاله وتيسيره عمارة الدنيا بما فيها من حيوان ونبات ومعدن إلى غير ذلك من المنافع التي يقصر عنها الوصف لمن يروم حصرها فسبحان المتفضل العظيم .

باب الحكمة في خلق الهواء

قال الله تعالى :

(وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه

وما أنتم له بخازنين) (45)

اعلم رحملك الله أن الهواء في خلقه تتخلخله الرياح ولولا ذلك لهلك جميع حيوان البر وباستنشاقه تعطل الحرارة في أجسام جميع الحيوانات لأنه لهم مثل الماء الحيوان البحر (46) فلو انقطع عن الحيوان استنشاقه انصرفت الحرارة التي فيها إلى قلبها فكان هلاكاً بسبب ذلك ثم انظر إلى الحكمة في سوق السحاب به فيقطع المطر بانتقال السحاب إلى موضع يحتاج إلى المطر فيها للزراعة فلو لا لطف الباري يخلق الرياح لثقلت السحاب وبقيت راكدة في أماكنها وامتنع انتفاع الأرض بها (47) .

45 (الحجر 22 ، لا تقدرون على تخزينه إذا أراد الله أن يذهبه .

46 (يستنشق حيوان البحر الأكسجين الذائب في الماء فليس له غنى عن الهواء تماماً مثل الكائنات البرية . .

47 (بل بدون الرياح يمتنع تكون السحاب أصلاً لأن الرياح تحمل بخار الماء الذي يتكثف في طبقات الجو العليا فيتكون السحاب .

ثم انظر عنها كيف تسير السفن بها وتنتقل بحدوثها وهبوبها فتحمل فيها من أقاليم إلى أقاليم مما لا يخلق تلك الأشياء فيها فينتفع أهلها بها فلو لا تنقلها بالهواء لم تكن تلك الأشياء إلا بموضعها التي خلقت فيها خاصة ولعسر نقلها بالدواب إلى غيرها من الأقاليم وللعباد ضرورات تدعو إلى ما ينقل إليهم مما ليس بخلق عندهم ومنافع يكثر تعدادها من طلب أرباح لمن يحملها ويعلم فوائدها .

ثم انظر إلى ما في الهواء من اللطافة والحركة يتخلل اجزاء العالم فينقى بحركته عفن الأرض فلولا لهفتت المساكن وهلك الحيوان بالوباء والعلل (48)

ثم انظر إلى ما يحصل منه من النفع في نقل السواقي والرمال إلى البساتين وتقوية أشجارها بما ينتقل إليها من التراب بسبب حركة الهواء وتستروجه جبال بالسواقي فيمكن الزراعة فيه وما فصل إلى السواحل مما ينتفع الناس بسببه وكل ذلك بحركة البحر (49) بالهواء فيقذف البحر العنبر وغيره مما ينتفع به العباد في أمورهم .

(48) لولا الهواء هلكت الكائنات بالاختناق .

(49) تحرك الرياح البحر فلا يترسب الملح في قاعه فتموت الكائنات وتفسد الحياة .

ثم انظر كيف يتفرق المطر بسبب حركة الهواء فيقع على الأرض قطرات فلولا حركة الهواء لكان الماء عند نزوله ينزل انصبابة واحدة فيهلك ما يقع عليه ثم يجتمع بلل القطرات فيجتمع أنهارا وبحارا على وجه الأرض من غير تضرر ويحصل بذلك مقصودهم على أحسن وجه .

فانظر إلى أثر رحمة الله ف سبحانه اللطيف بخلقه المدبر للملكه ثم انظر عموم هذه الرحمة وعظيم نفعها وشمول هذه النعمة وجليل قدرها كما نبه العقول عليها بقوله تعالى :

(هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات أن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) *

ثم من باب النعمة وعظيم الحكمة أن جعل سبحانه الصحو يتخلل نزول الغيث فصارا يتعاقبان لما فيه صلاح هذا العالم فلو دام واحد منها عليه لكان فسادا .

ألا ترى أن الأمطار إذا توالى وكثرت عفنت البقول والخضروات وهدمت المساكن والبيوت وقطعت السبل ومنعت من الأسفار وكثير من الحرف والصناعات ولو دام الصحو

لجفت الأبدان والنبات وعفن الماء في العيون والأودية فأضر ذلك بالعباد وغلب اليبس على الهواء فأحدث ضررا آخر من الأمراض وغلت بسببه الأسعار من الأقوات وبطل المرعى وتعذر على النحل ما يجده من الرطوبة التي يرعاها على الأزهار وإذا تعاقبا على العالم اعتدل الهواء ودفع كل واحد منهما ضرر الآخر فصلحت الأشياء واستقامت وهذا هو الغالب من مشيئة الله. فإن قيل قد يقع من أحدهما ضرر في بعض الأوقات.

قلنا قد يكون ذلك لتنبيه الانسان بتضاد الأشياء على نعمة الله تعالى وفضله ورحمته أنه هو الغالب فيحصل لهم بذلك انزجار عن الظلم والعصيان ألا ترى أن من سقم جسمه احتاج إلى ما يلائمه من الأدوية البشعة الكريهة ليصلح ما فسد منه قال الله تعالى :

(ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير) *

باب في حكمة خلق النار

قال الله تعالى :

(أفرايتم النار التي تورون أن أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين فسيح باسم ربك العظيم) (50)

اعلم وفقنا الله وإياك أن الله خلق النار وهي من أعظم النعم على عباده ولما علم الله سبحانه وتعالى ان كثرتها وبثها في العالم مفسدة جعلها الله بحكمته محصورة (51) حتى إذا احتيج إليها وجدت واستعملت في كل أمر يحتاج إليها فيه فهي مخزونة (52) في الأجسام ومنافعها كثيرة لا تحصى فمنها ما تصلحه من الطبائخ والأشربة التي لولاها لم يحصل فيها نضج

(50) الواقعة 71 إلى 74

(51) ان الله جل وعلا جعل النار مخزونة وجعل خزائنها فوق الانسان وتحت اقدامه . فأما التي فوقه فالطاقة الحرارية الهائلة للشمس والتي لا يصل للانسان منها إلا بقدر حاجته واستمراره في الحياة وأما التي تحت اقدامه فباطن الأرض حيث تنصهر الحجارة ويذوب الحديد . ولهذا كان الانسان من فوقه إلى أسفله محصورا لآية من آيات الله .

(52) قال تعالى في سورة يس الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون .

ولا تركيب ولا اختلاط ولا صحة هضم لمن يستعملها في أكل
وشرب فأنظر لطف الباري سبحانه في هذا الأمر المهم .
ثم انظر فيما يحتاج الناس إليه من الذهب والفضة
والنحاس والحديد والرصاص والقزدير وغير ذلك فلولاها لم
يكن شيء من الانتفاع من هذه الأشياء فيها يذاب النحاس
فتعمل منه الأواني وغيرها وقد نبه الله تعالى على مثل ذلك بأنها
نعمة توجب الشكر فقال تعالى :

(اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادي الشكور) *

وبها يلين الحديد فيعملون به أنواعا من المنافع والآلات
للحروب مثل الدروع والسيوف إلى غير ذلك مما يطول تعدادها
وقد نبه الله تعالى على مثل ذلك فقال :

(وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) *

وقال تعالى :

(ليحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون) *

ومنه يعمل آلات للحرث والحصاد وآلات تتأثر بها النار
(53) وآلات يطرق بها وآلات لقطع القبال الصمة وآلات

* سبأ 13 .

* الحديد 25 .

* الأنبياء 80 .

(53) الآلات التي تتأثر بها النار هي الآلات التي تساعد على إخمادها .

لنجارة الأخشاب مما يكثر تعدادها فلولا لطف الله سبحانه
بخلق النار لم يحصل من ذلك شيء من المنافع ولولاها لما كان
يتهيأ للخلق من الذهب والفضة نقود ولا زينة ولا منفعة
وكانت هذه الجواهر معدودة من جملة الأتربة .

ثم انظر إلى ما جعل الله تعالى في النار من الفرح والترح
عندما تغشى الناس ظلمة الليل كيف يستضيئون بها
ويبتدون بنورها في جميع أحوالهم من أكل وشرب وتمهيد مرقد
ورؤية ما يؤذيهم وموانسة مرضاهم وقصدها والعمل عليها برا
وبحرا فيجدون بوجودها أنسا حتى كأن الشمس لم تغب عن
أفقهم ويدفعون بها ضرر الثلوج والرياح الباردة ويستعينون بها
في الحروب ومقاومة حصون (54) لا تملك إلا بها فانظر ما
أعظم قدر هذه النعمة التي جعل سبحانه حكمها بأيديهم أن
شاؤوا خزنوها وإن شاؤوا أبرزوها .

(54) في الحروب تم استحداث طرق كثيرة للحصول على قذائف طوية
وبعيدة المدى ومهما يكن من أمرها فإن انطلاقها لا بد له من شرارة
ويطلق على استخدام هذه القذائف اسم اطلاق النار . . . أما مقاومة
الحصون فيرجع هذا التكتيك إلى عصور قديمة حيث كانت تستخدم ما
يسمى بالمجانيق وهي كور من نار تلقى على الحصن وخلف أبوابه وفي
العصر الحديث يستخدم النابالم وهو مادة حارقة بدلا من المنجنيق .

باب في حكمة خلق الانسان

قال الله تعالى :

(ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين) (55)

إلى آخر ما وصفه سبحانه . اعلم وفقك الله تعالى أن الله عز وجل لما سبق في علمه خلق الخلق وبثهم في هذه الدار وتكليفهم فيها للبلوى .

خلقهم سبحانه متناسلين بعضهم من بعض فخلق سبحانه الذكر والأنثى وألقى في قلوبهم المحبة والدواعي حتى عجزوا عن الصبر (56) وعدموا الحياة في اجتناب الشهوة فساقطهم الشهوة المفطورة في خلقهم إلى الاجتماع .

وجعل الفكرة تحرك عضوا مخصوصا به إلى ايداع الماء في القرار المكين الذي يخلق فيه الجنين فاجتمعت فيه النطفة من سائر البدن وخرجت ماء دافقا مندفعا من بين الصلب

(55) المؤمنون 12

(56) العجز عن الصبر يستقيم مع طبيعة النفس البشرية ولهذا رفض الاسلام الرهبانية واجتناب الشهوة تعطيل لعنصر الشهوة المفطور في الطبيعة الانسانية ولذا كان الطريق الوحيد الذي أقره الاسلام لعدم تعطيل عنصر الشهوة في الفطرة هو طريق الزواج .

والترائب بحركة مخصوصة (57) فانتقلت بسبب الافلاح من باطن إلى باطن فكانت مع انتقالها باقية على أصلها لأنها ماء مهين أدنى شيء يياشرها يفسدها ويغير مزاجها فهي ماء مختلط جميعه مستوية أجزاؤه لا تفاوت فيها بحال .

فخلق سبحانه منه الذكر والأنثى بعد نقلها من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى العظام ثم كساها اللحم وشدها بالأعصاب والأوتار ونسجها بالعروق وخلق الأعضاء وركبها فدور سبحانه الرأس وشق فيه السمع والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ فجعل العين للبصر ومن العجائب سر كونها مبصرة للأشياء وهو أمر يعجز عن شرح سره (58)

(57) تعتبر الخصية هي المصنع الذي يكون الحيوانات المنوية أو النطف . والخصية تتكون من مجموعة ضخمة من الأنابيب المنوية يبلغ طول الأنبوب الواحد مترا ويبلغ عدد الأنابيب في الخصية الواحدة حوالي ألف أنبوب . . . وفي حياة الجنين في الرحم تكون الخصية قرب الكلية في الظهر وبعد الولادة تكون الخصية في مكانها الطبيعي من الجسم . والسبب في هذا يرجع إلى النطفة لا يمكن أن تعيش في حرارة البدن بل لا بد لها من حرارة تقل عن درجة حرارة الجسم من 3 : 4 درجات . . وإذا كان مقر الحيوانات المنوية في عالم الرحم بجوار الكلية في الظهر نتذكر قوله تعالى (وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم الست بربكم قالوا بلى شهدنا) هذه حقيقة علمية كشف الطب الحديث عنها (ص 64 الطب محراب الايمان) (58) ان الحديث عن سر كون العين مبصرة للأشياء يجعل الاعناق خاضعة خاشعة للباري سبحانه يقول خالص جلبي في الطب محراب =

وركبتها من سبع طبقات لكل طبقة صفة وهيئة مخصوصة بها فلو فقدت طبقة منها أو زالت لتعطلت عن الإبصار.

وانظر إلى هيئة الأشفار التي تحيط بها وما خلق فيها من سرعة الحركة لتقى العين مما يصل إليها مما يؤديها من غبار وغيره فكانت الأشفار بمنزلة باب يفتح وقت الحاجة ويغلق في غير وقتها ولما كان المقصود من الأشفار جمال العين والوجه جعل شعرها على قدر لا يزيد زيادة تضر بالعين ولا ينقص نقصا يضر بها وخلق في مائها (59) ملوحة لتقطع ما يقطع فيها وجعل أطرافها منخفضتين عن وسطهما قليلا لينصرف ما يقع في العين لأحد الجانبين وجعل الحاجبين جمالا للوجه وسترا للعين وشعرهما يشبه الأهداب في عدم الزيادة المشوهة.

=الايان مؤسسة الرسالة ص 178 ان الانسان العادي يخزن كل يوم من الصور المرئية فقط نصف مليون صورة في مستودعات الذاكرة في متوسط حياة الانسان. هذا فقط من ناحية اختزان المراثيات اضيف إلى ذلك المسموعات والأشياء التي تشم وتذاق وتلمس وتحس خاصة وان الحواس ليست خمسة فقط كما يتصور الناس بل قد تصل إلى عشرين حاسة كما يقدر عدد العناصر الحساسة للنور القوى والألوان في العين الواحدة 7 مليون عنصر أي ان مجموع الأعضاء المستقبلية للنور في العينين يبلغ حوالي 300 مليون عنصر مستقبل للضوء والألوان.

(59) ان غدة الدمع تفرز باستمرار فتطهر العين وترطبها ولكن أين المصروف ؟ ان هناك طريقا خاصا يصرف مفرز الدمع إلى الأنف فإذا =

وجعل شعر الرأس واللحية قابلا للزيادة والنقص فيفعل
فيهما ما يقصد به الجمال من غير تشويه .

ثم انظر إلى اللسان وما في ذلك من الحكم فجعل الشفتين
ستر للخم كأنهما باب يغلق وقت ارتفاع الحاجة إلى فتحه وهو
ستر على اللثة والأسنان مفيد للجمال فلولاهما لتشوهت الخلقة
وهما معينان على الكلام واللسان للنطق والتعبير عما في ضمير
الانسان وتقليل الطعام والقائه تحت الأضراس حتى
يستحكم مضغه ويسهل ابتلاعه .

ثم جعل الأسنان أعدادا متفرقة ولم تكن عظما واحدا فإن
أصاب بعضها ثلم انتفع بالباقي وجمع فيها بين النفع والجمال
وجعل ما كان منها معكوسا زائد الشعب حتى تطول مدته مع

= زادت الكمية طففت إلى الخارج كما يحدث في البكاء (ترى أعينهم
تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق) وإذا تساءلنا ما علاقة التأثير
والخشوع بالبكاء نقول : ان حالات الخشوع والتأثر هي حالة وجدانية
انفعالية نتيجة معرفة روعة وعظمة القدرة الالهية ويتنقل هذا التأثير عبر
الأعصاب فتدعو هذه الغدة إلى الإفراز فتفرز الدمع حيث تصل النفس
إلى مرحلة تعجز عن التعبير فيعبر بالبكاء . 'وقد كان الرسول صلى الله
عليه وسلم يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء . (الطب
والايمان ص 509) .

الصف الذي تحته وجعلها صلبة ليست كعظام البدن لدعاء الحاجة إليها على الدوام وفي الأضراس كبر وتسريف لأجل الحاجة إلى درس الغذاء فإن المضغ هو الهضم الأول.

وجعلت الثنايا والأنياب لتقطيع الطعام وجمالاً للضم فأحكم أصولها وحدد دروسها وبيض لونها مع حمرة ما حولها وجعلها متساوية الرأس متناسبة التركيب كأنها الدر المنظوم.

ثم أنظر كيف خلق في الفم نداوة (60) محبوسة لا يظهر إلا في وقت الحاجة إليها فلو ظهرت وسالت قبل ذلك لكان تشويهاً للإنسان فجعلت ليلب بها ما يمضغ من الطعام حتى يسهل تسويغه من غير عنت ولا ألم فإذا فقد الأكل عدت تلك الندوة الزائدة التي خلقت للتطبيب وبقي منها ما يبل اللهوات والخلق لتصوير الكلام ولئلا يجف فإن جفافه مهلك للإنسان. ثم أنظر إلى رحمة الله ولطفه إذ جعل للأكل لذة الأكل فجعل الذوق في اللسان (61) وغيره من أجزاء الفم ليعرف بالذوق ما يوافقه ويلائمه من المملووذ فيجد في ذلك راحة في

60 (يقصد اللعاب الذي تفرزه الغدد اللعابية .

61 (ان حكمة خلق اللسان حكمة بالغة يقول د خالص جلبي ان الطعوم والمذاق توضع على اللسان في امكنة محددة . فالطعم الحلو مركز احساسه في مقدمة اللسان . والطعم المر في مؤخرة اللسان وأما المالح

الطعام والشراب إذا دعت حاجة إلى تناوله وليجنب الشيء الذي لا يوافقه ويعرف بذلك حد ما تصل الأشياء إليه في الحرارة والبرودة .

ثم إن الله تعالى شق السمع وأودعه رطوبة مرة يحفظ بها السمع من ضرر الدود ويقتل أكثر الهوام الذين يلجون (62) السمع وحفظ الأذن بصدفة تجمع الصوت فترده إلى صماخها وجعل فيها زيادة حس لتحس بما يصل إليها مما يؤذيها من هوام وغيره (63) وجعل فيها تعويجات ليتطرد فيها الصوت ولتكثر حركة ما يدب فيها ويطول طريقه فيتأثر ويتنبه صاحبها من النوم .

فيوضع على جوانب اللسان كما يحس به معظم أعضاء الفم مثل الشفتين والحنك وباطن الخدين وقاع الفم وأما الطعام الحامض فيوضع على جوانب اللسان ويحتوي اللسان على 17 عضلة محركة . (الطب والايان ص 227) .
(62) يدخلون .

(63) من أعقد الحواس التي يحتويها جسم الانسان « حاسة السمع » - قسم الأطباء الأذن إلى ثلاثة أقسام هي الأذن الخارجية والوسطى والداخلية وهي أخطر الأقسام . لأنها هي التي تستقبل الأصوات . وتستطيع ان تميز ما بين 325 صوتا مختلفا وان المتأمل ليأخذ العجب في قدرة الأذن على التقاط كافة الأصوات ويميز ما بين صوت الانسان وتغريد البلابل وحفيف الأشجار . وصرير الأقلام . . الخ . وهذه الأصوات قبل دخولها إلى الأذن تحدث حركات اهتزازية (ترددات) والأذن الطبيعية تسمع الصوت إذا كان مقدار اهتزاز الصوت يتراوح ما بين (16 - 200000) هزة في الثانية (الطب في محراب الايان ج 1 . 191) .

ثم آنظر إلى ادراكه المشمومات بواسطة ولوج الهوى وذلك
سر لا يعلم حقيقته إلا الباري سبحانه (64) إلى غير ذلك .
ثم آنظر كيف رفع الأنف في وسط الوجه فأحسن شكله
وفتح منخريه وجعل فيه حاسة الشم ليستدل باستنشاقه على
روائح مطاعمه ومشاربه ليتنعم بالروائح العطرة ويحجب
الخبائث القذرة وليستنشق أيضا روح الحياة غذاء لقلبه وترويحاً
لحرارة باطنه ثم خلق الحنجرة وهيجهما لخروج الأصوات ودور
اللسان في الحركات والتقطيعات فيقطع الصوت في مجاري
مختلفة تختلف بها الحروف لتسع طريق النطق وجعل الحنجرة
مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة وصلابة

64 (توجد بعض المعلومات الأولية التي اعطاها العلماء في العصر الحديث عن
حاسة الشم تتلخص في :

ان حاسة الشم تتركز في الأنف وجدار الأنف الداخلي في ثلاث قطع مغلفة
بغشاء مخاطي يعلو بعضها البعض تسمى القرينات وهي تشترك في عملية
تسخين الهواء أثناء مروره بالأنف وفوق القطعة العلوية التي تسمى بالقرين
العلوى توجد المنطقة الشمية وفي هذه المنطقة تتوزع الألياف . بحيث يكون
لكل خلية شمية 6 : 8 أهذاب تغطي في سائل مخاطي يعلوها . فإذا وصلت
الروائح الشمية إلى تلك المنطقة احلت في السائل المخاطي أولاً ثم في المواد
التي تحويها تلك الأهذاب وهي من طبيعة دسمة تساعد على حل المواد
الكيميائية .

لذا كانت عملية الشم عملية كيميائية . وعملية الصوت تقوم على قواعد
فيزيائية وأما الضوء فهذا اعقد بكثير . الطب والايان 225 .

الجوهر ورخاوته والطول والقصر حتى اختلفت بسبب ذلك
الصوات فلم يتشابه صوتان .

كما خلق بين كل صورتين اختلافا فلم تشته صورتان بل
يظهر بين كل صورتين فرقان حتى يميز السامع بعض الناس
عن بعض بمجرد الصوت وكذلك يظهر بين كل شخصين
فرقان وذلك لسر التعارف فإن الله تعالى لما خلق آدم وحواء
خالف بين صورتيهما فخلق منها خلقا جعله مخالفا لأخلق أبيه
وأمه ثم توالى الخلق كذلك لسر التعارف (65) .

ثم أنظر لخلق اليدين وهما إلى جلب المقاصد ودفع
المضار وكيف عرض الكف وقسم الأصابع الخمس وقسم
الأصابع بأنامل وجعل الأربعة في جانب والابهام في جانب
فيدور الابهام على الجميع فلو اجتمع الأولون والآخرون على
أن يستطيعوا بدقيق الفكر وجها آخر من وضع الأصابع سوى
ما وضعت عليه من بعد الابهام عن الأربعة في الطول وترتيلها
في صف واحد لم يقدروا على ذلك وبهذا الوضع صلح بها
القبض والاعطاء فإن بسطها كانت طبقا يضع عليه ما يريد
وإن جمعها كانت آلة يضرب بها وإن ضمها ضما غير تام كانت
مفرقة له وإن بسطها وضم أصابعه كانت مجرفة .

(65) قال تعالى « انا خلقناكم من ذكر وأنثى فجعلناكم شعوب وقبائل لتعارفوا .

ثم خلق الأظافر على رؤوسها زينة للأنامل وعمادا لها من ورائها حتى لا تضعف ويلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تتناولها الأنامل لولاها وليحك بها جسمه عند الحاجة إلى ذلك فأنظر أقل الأشياء في جسمه لو عدمها وظهرت به حكمة لكان أضعف الخلق وأعجزهم عن دفع ما يؤله وجلب ما ينتفع به في ذلك ولم يقم له غير الظفر مقامه في حك جسده لأنه مخلوق لذلك ولغيره فهو صلب كصلابة العظام ولا رخو كرخاوة الجلد يطول ويخلق ويقص ويقصر لمثل ذلك ثم جعله يتهدي به إلى الحك في حالة نموه ويقظته ويقصد المواضع إلى جهتها من جسده ولو احتاج إلى غيره واستعان به في حكمها لم يعثر الغير على مواضع الحاجة إلا بعد طول تعب .

ثم انظر كيف مد منه الفخذين والساقين وبسط القدمين ليتمكن بذلك من السعي وزين القدمين بالأصابع وجعلها زينة وقوة على السعي وزين الأصابع أيضا بالأظفار وقواها بها ثم انظر كيف خلق هذا كله من نقطة مهينة ثم خلق منها عظام جسده فجعلها أجساما قوية صلبة لتكون قواما للبدن وعمادا له وقدرها تبارك وتعالى بمقادير مختلفة وأشكال متناسقة فمنها صغير وطويل ومستدير ومجوف ومصمت وعريض وذقيق ثم أودع في أنابيب هذه العظام المخ الرقيق (٦٦) مصانا لمصلحتها وتقويتها .

(٦٦) يقصد النخاع الشوكي المتصل بالمخ .

ولما كان الانسان محتاجا إلى جملة جسمه وبعض أعضائه لتردده في حاجاته لم يجعل الله سبحانه عظامه عظما واحدا بل عظاما كثيرة وبينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة فقدر شكل كل واحد منها على قدر وفق الحركة المطلوبة بها ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتار أثبتها بأحد طرفي العظم والصق الطرف الآخر كالرباط .

ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة منها ومن الآخر نقرا غائصة فيها توافق لأشكال الزوائد لتدخل فيها وتنطبق فصار الانسان إذا أراد أن يحرك شيئا من جسده دون غيره لم يمتنع عليه فلولا حكمة خلق المفاصل لتعذر عليه ذلك .

ثم انظر كيف جعل خلق الرأس (67) مركبا من خمس

(67) ان منطقة الرأس هي رأس الأمر بالنسبة للانسان قدر بعض العلماء ان المراثيات أو المسموعات تنطبع في الدماغ كما تنطبع الصورة على جزئيات الفضة في لوحة الفوتوغراف الحساسة . ومنطقة الصدغ في الدماغ إذا أصيب الانسان فيها يؤدي إلى اضطراب الذاكرة . والدماغ لا يعرف التعب حتى لو عمل ما يزيد على عشر ساعات متواصلة . وإنما الذي يتعب هو البدن وان أي تخريب في منطقة الدماغ يعنى خسارة أعظم وأثمن الأشياء عند الانسان ألا وهي الذاكرة . (الطب محراب الايمان 181 / 182)

وخمسين عظما مختلفة الأشكال والصور وألف بعضها إلى بعض بحيث استوت كرة الرأس كما ترى .

فمنها ستة تختص بالقحف وأربعة وعشرون للحى الأعلى واثنان للحى الأسفل والبقية من الأسنان بعضها عريض يصلح للطحن وبعضها حاد يصلح للقطع ثم جعل الرقبة مركز الرأس فركبها من سبع خرزات (68) مجوفات مستديرة وزيادات ونقصان لينطبق بعضها على بعض ويطول ذكر الحكمة فيها .

ثم ركب الرقبة على الظهر من أسفل الرقبة إلى منتهى عظم العجز من أربعة وعشرين خرزة (69) وعظم العجز ثلاثة أخرى مختلفة ووصل به من أسفله عظم العصص وهو مؤلف من ثلاثة أخرى .

ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتف وعظام اليدين وعظام العانة وعظام العجز وعظام الفخذين والساقين وأصابع الرجلين فجعل عدد العظام في بدن الانسان مائتان عظم وثمانية وأربعون عظما سوى العظام الصغيرة التي حشى بها خلل المفاصل .

(68) يقصد فقار العنق

(69) العمود الفقري

فانظر كيف خلق الباري سبحانه وتعالى ذلك كله من
نطفة رقيقة سخيقة والمقصود من ذكر اعدادها تعظيم مدبرها
وخالقها وكيف خلقها وخالف بين أشكالها وخصها بهذا القدر
المخصوص بحيث لو ازداد فيها واحد كان وبالاً واحتاج
الانسان إلى قلعه ولو نقص منها واحد لاحتاج الانسان إلى
جبره .

فجعل سبحانه وتعالى في هذا الخلق عبرة لأولى الأبصار
وآيات بينات على عظمته وجلاله بتقديرها وتصويرها . ثم
انظر كيف خلق سبحانه آلات لتحريك العظام وهي
العضلات فخلق في بدن الانسان خمسمائة وتسعة وعشرين
عضلة والعضلة مركبة من لحم وعصب ورباط وأغشية وهي
مختلفة المقادير والأشكال بحسب اختلاف مواضعها وحاجاتها
فاربعة منها لحركة العين وأجفانها بحيث لو نقصت منها واحدة
اختلف أمر العين .

وهكذا لكل عضو عضلات بعدد يخصه وقدر يوافقه وأما
أمر الأعصاب والعروق والأوردة والشرابين ومنابتها وسعتها
فأعجب من هذا وشرحه يطول ثم عجائب ما فيه من المعاني
والصفات التي لا تدرك بالحواس أعظم .

ثم انظر إلى ما شرف به وخص في خلقه بأنه خلق ينتصب
قائماً ويستوي جالساً ويستقبل الأمور بيديه وجوارحه ويمكنه

العلاج والعمل ولم يخلق مكبوبا على وجهه كعدة من الحيوانات إذ لو كان كذلك لما استطاع هذه الأعمال .

ثم انظر من حيث الجملة إلى ظاهرة هذا الانسان وباطنه فتجده مصنوعا صنعة بحكمة يقضى منها بالعجب وقد جعل سبحانه اعضاءه تامة بالغذاء والغذاء متوال عليها لكنه تبارك وتعالى قدرها بمقادير لا يتعداها بل يقف عندها ولا يزيد عليها فإنها لو تزايدت بتوالي الغذاء عليها لعظمت أبدان بني آدم وثقلت عن الحركة وعطلت عن الصناعات اللطيفة (٧٥) ولا تناولت من الغذاء ما يناسبها ومن اللباس كذلك ومن المساكن مثل ذلك .

وكان من بليغ الحكمة وحسن التدبير وقوفها على هذا الحد المقدر رحمة من الله ورفقا بخلقه فإذا وجدت هذا كله صنعة الله تعالى من قطرة ماء فما ظنك بصنعته في ملكوت السموات والأرض وشمسها وقمرها وكواكبها وحكمته في أقدارها وأشكالها وعدادها وأوضاعها واجتماع بعضها واقتراق بعضها واختلاف صورها وتفاوت مشارقها ومغاريها .

(٧٥) الاسلام يدفع اتباعه إلى عمارة الكون وإلى الأخذ بالأسباب وإلى المسير في أرض الله الواسعة وتدبر ما فيها والوقوف على مداها وجزرها وطبيعة خلق الانسان وما وفره الله له من حرية حركة لأكبر دليل على مطالبة الحق سبحانه بعمارة الكون ولو أراد الله جالسا لخلقه جالسا . . الخ .

فلا تظن أن ذرة في السموات والأرض وسائر عالم الله
ينفك عن حكمة بل ذلك مشتمل على عجائب وحكم لا
يحيط بجميعها إلا الله سبحانه وتعالى ألم تسمع قوله سبحانه
وتعالى :

(أنتم أشد خلقا أم السماء بناها) *

إلى آخر ما نبه به وتأمل لو اجتمع الإنس والجن على أن
يخلقوا للنطفة سمعا وبصرا وحياة لم يقدرُوا على ذلك فانظر
كيف خلقها سبحانه في الأرحام وشكلها فأحسن تشكيلها
وقدرها فأحسن تقديرها وصورها فأحسن تصويرها وقسم
أجزاءها المتشابهة إلى أجزاء مختلفة فأحكم العظام في أرجائها
وحسن أشكال أعضائها ورتب عروقها وأعصابها ودبر ظاهرها
وباطنها وجعل فيها مجرى لغذائها ليكون ذلك سببا لبقائها
مدة حياتها .

ثم كيف رتب الأعضاء الباطنة من القلب والكبد والمعدة
والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء كل عضو بشكل
مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص فجعل المعدة
لنضج الغذاء عصباً معيناً شديداً لحاجتها وبذلك يمكن
تقطيعه وطحنه وجعل طحن الأضراس أولاً معيناً للمعدة على

* النازعات 27 .

جودة طحنه وهضمه وجعل الكبد لاحالة الغذاء إلى الدم فيجذب منه إلى كل عضو من الغذاء ما يناسبه فغذاء العظم خلاف غذاء اللحم وغذاء العروق خلاف غذاء الأعصاب وغذاء الشعر خلاف غذاء غيره وجعل الطحال والمرارة والكلية لخدمة الكبد .

فالطحال لجذب السوداء والمرارة لجذب الصفراء والكلية المائية عنه والمثانة لقبول الماء عن الكلية (٧١) ثم يخرجها في مجرى الأحليل والعروق والكبد في اتصال الدم منه إلى سائر أطراف البدن وجعل جوهرها اتقن من جوهر اللحم ليصونه ويحصره فيه بمنزلة الظروف والأوعية ثم انظر كيف دبره في الرحم ولطف به ألطافا يطول شرحها ولا يستكمل العلم بجملتها إلا خالقها ويعجز الواصف عن وصف ما وصل إليه نظره من ذلك .

فمن ذلك جعله فيها لا يحتاج إلى استدعاء ولا يحتاج المولود إلى ما يبين ذلك لا بوعظ ولا تنبيه بل ذلك في الطباع إلى وقت حاجة المولود إلى الاغاثة في غذائه ولولا ذلك لنفرت الأمهات عنه من شدة التعب وكلفة التربية حتى اشتد جسمه وقويت أعضاؤه الظاهرة والباطنة لهضم الغذاء فحينئذ انبت له الأسنان عند الحاجة إليها لا قبل ذلك ولا بعده .

(٧١) الكلية لتنقية الدم من السموم

ثم انظر كيف خلق الله فيه التمييز والعقل على التدرّيج إلى حين كماله وبلوغه وانظر وفكر في سر كونه يولد جاهلاً غير ذي عقل وفهم فانه لو كان ولد عاقلاً فهما لا نكر الوجود عند خروجه إليه حتى يبقى حيران تائه العقل إذ رأى ما لا يعرف وورد عليه ما لم يره ولم يعهد مثله .

ثم كان يجد غضاضة أن يرى نفسه محمولا وموضوعا معصبا بالخرق ومسجى في المهد مع كونه لا يستغني عن هذا كله لرقّة بدنه ورطوبته حين يولد .

ثم كان لا يوجد من الرقة والحلاوة والمحبة في القلوب ما يوجد للصغير لكثرة اعتراضه بعقله واختياره لنفسه فتبين أن ازدياد العقل والفهم فيه على التدرّيج أصلح به .

أفلا يرى كيف أقام كل شيء من الخلقة على غاية الحكمة وطريق الصواب واعلمه تقلب الخطأ في دقيقه وجليله ثم انظر فيما إذا اشتد خلق فيه طريقا وسببا للتناسل وخلق في وجهه شعرا ليميزه عن شبه الصينيان والنسوان ويحمّله ويستربه غصون وجهه وعند شيخوخته وإن كانت انثى ابقى وجهها نقيا من الشعر لها بهجة ونضارة تحرك الرجال لما في ذلك من بقاء النسل .

فكر الآن فيما ذكرناه ودبره سبحانه في هذه الأحوال المختلفة هل ترى مثل هذا يمكن أن يكون مهملاً أريت لو لم يجر له الدم غذاء وهو في الرحم ألم يكن يزوي ويهلك ويحف النبات إذا انقطع عنه الماء .

ولو لم يزعجه المخاض عند استكماله ألم يكن يهلك ببقائه في الرحم هو وأمه ولو لم يوافه اللبن عند ولادته ألم يكن يموت جوعاً وعطشاً أو يغذى بما لا يوافق ولا يصلح عليه بدنه ولو لم يخلق له الأسنان في وقتها ألم يكن يمتنع عليه مضغ الطعام وازدراؤه ويقيم على الرضاع ولا يشتد جسمه ولو لم يخرج له شعر الوجه لبقى في هيئة النساء والصبيان فلا ترى له هيئة ولا جلالة ولا وقار ومن ذا الذي صده حتى يوفيه بكل هذه المآرب في وقتها إلا الذي أنشأه بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً وتفضل عليه ومن عليه بكل هذه النعم .

فكر في شهوة الجماع الداعية لحيائه والآلة الموصلة إلى الرحم النطقة والحركة الموجبة لاستخراج البطفة وما في ذلك من التدبير المحكم .

ثم فكر في جملة أعضاء البدن وتهيئة كل عضو منها للآرب الذي أريد منها فالعينان للاهتمام بالنظر .

واليدان للعلاج والجذب والدفع .
والرجلان للسعي .

والمعدة لهضم الطعام .
والكبد للتخليص والتمييز .
والفم للكلام ودخول الغذاء والمنافذ لدفع الفضلات
وإذا تأملت كذلك مع سائر ما في الانسان وجدته قد وضع
على غاية الحكمة والصواب .

فكر في وصول الغذاء إلى المعدة حتى ينضجه ويبعث
صفوه إلى الكبد في عروق دقاق قد جعلت كالمصفاة للغذاء
ولكيلا يصل إلى الكبد منه شيء غليظ خشن فينكؤها فإنها
خلقت دقيقة لا تحمل الغث فتقبله باذن الله دما وتنفذ إلى
سائر البدن في مجار مهياة لذلك فيصل إلى كل شيء من ذلك .
ما يناسبه من يابس ورخو وغير ذلك فتبارك الله رب العالمين .

ثم ينفذ ما يكون من خبث وفضول إلى معابض وأعضاء
أعدت لذلك كما ذكرنا قبل هذا فكونها كالأوعية تحمل هذه
الفضلات لكيلا تنتشر في البدن فتسقمه ثم انظر هل تجد في
خلق البدن شيئا لا معنى له هل خلق البصر إلا ليدرك
الأشياء والألوان فلو كانت الألوان ولم يكن بصر يدركها هل
كان في الألوان منفعة ولو لم يكن لخلق الأبصار نور خارج عن
نورها ما كان ينتفع بالبصر وهل خلق السمع إلا ليدرك
الأصوات

فلو كانت الأصوات ولم يكن سمع يدرّدها لم يكن في الأصوات منفعة كذلك سائر الحواس .

فكر في أشياء جعلت بين الحواس والمحسوسات لا يتم الحس إلا بها منها الضياء والهواء فلو لم يكن ضياء تظهر فيه المبصرات لم يدركها ولو لم يكن هواء يؤدي الصوت إلى السمع لم يكن السمع يدرك الصوت . فكر فيمن عدم البصر والسمع وما يناله من الخلل فإنه لا ينظر أين يضع قدمه ولا يدري ما بين يديه ولا يفرق بين الألوان ولا يدري بهجوم آفة أو عدو ولا سبيل له أن يتعلم أكثر الصناعات وأما من عدم السمع فإنه يفقد روح المخاطبة والمحاورة ويعدم لذة الأصوات المستحسنة والألحان المطربة وتتعظم المؤونة على من يخاطبه حتى ينفر منه ولا يسمع شيئاً من أخبار الناس وأحاديثهم حتى يصير كالغائب وهو شاهد والميت وهو حي .

وأما من عدم العقل فهو شر من البهائم فانظر كيف صارت هذه الجوارح وهذه الأوصاف التي بها صلاح الانسان محصلة ومبلغة لجميع مآربه ومتممة لجميع مقاصده وإذا فقد شيئاً اختل وعظم مصابه ومن بلي بفقد شيء منها فهو تأديب وموعظة وتحرّيش بقدر نعمة الله في حقه وحق أمثاله ولينال بصره على ذلك حفظاً في الآخرة فانظر إلى رحمة الله كيف توجد في العطاء والمنع .

ثم فكر في الأعضاء التي خلقت أفرادا وأزواجا وما في ذلك من الحكمة والصواب فالرأس مما خلق فردا كثيرا من الحواس قد حوتها رأس واحدة ولو زاد عليها شيء كان ثقلا لا يحتاج إليه فإن كان قسمين منهما فإن تكلم أحدهما بقي الآخر معطلا لا حاجة إليه وإن تكلم منهما جميعا بكلام واحد كان أحدهما فضلة لا يحتاج إليها وأن تكلم من أحدهما بخلاف ما تكلم به من الآخر لم يدر السامع مراده من ذلك وإنما الذي يأخذ به السامع هو ما كان واضحا واليدان خلقتا أزواجا ولم يكن للإنسان خير في أن يكون بيد واحدة لاختلاف ما يعالجه من الأمور فإنك ترى من شلت إحدى يديه ما يكون عنده من النقص وإن يكلف بشيء لم يحكمه ولا يبلغ ما يبلغ صاحب اليدين وحكمة الرجلين ظاهرة.

فكر في تهيئة آلات الصوت فالحنجرة كالانبوبة لخروج الصوت واللسان والشفتان والأسنان لصاغة الحروف والفم ألا ترى أن من سقطت أسنانه أو أكثرها كيف يحصل الخلل في كلامه .

ثم انظر إلى ما في الحنجرة من المنفعة لسلوك النسيم منها إلى الرئة فتروح على الفؤاد بهذا النفس المتتابع وما في اللسان من تقليب الطعام واعانته على تسويغ الطعام والشراب وما في الأسنان من المعونة أيضا ثم هي كالسند للشفتين تمسكهما

وتدعهما من داخل الفم وبالشفيتين يرتشف الشراب حتى يكون ما يدخله إلى الجوف بقصد ويقدر ما يختاره الانسان ثم هما على الفم كالباب فقد تبين أن كل عضو من هذه الأعضاء ينصرف إلى وجوه من المآرب وضروب من المصالح إن زاد أفسد وإن نقص أفسد فذلك تقدير العزيز العليم .

فكر في الدماغ إذا كشف عنه فإنك تجده قد لف بعضه فوق بعض ليصونه من الأعراض وأطبقت عليه الجمجمة والشعر ستر لها وجمال وليبعد عنها ما يؤذيها من حر وبرد وغير ذلك فحصى سبحانه وتعالى الدماغ هذا التحصين لعلمه بأنه مهم وأنه مستحق لذلك لكونه ينبوع الحسن .

ثم انظر كيف غيب الفؤاد في جوف الصدر وكساه المدرعة التي هي غشاؤه واتقنها وحصنه بالجوانح وما عليها من اللحم والعصب لشرفه وأن ذلك اللائق به .

ثم انظر كيف جعل في الخلق منفذين أحدهما للصوت وهو الحلقوم الواصل إلى الرئة والآخر للغذاء وهو المريء الواصل إلى المعدة وجعل على الحلقوم طبقة⁽⁷²⁾ يمنع الطعام أن يصل إليه ثم جعل الرئة مروحة للفؤاد لا تفتروا ولا تخل تأخذ وترد بغير كلفة لئلا تنحصر الحرارة في القلب فتؤدي إلى التلف ثم ملأ الجو هواء لهذه المصلحة وغيرها .

(72) هو لسان المزمار

ثم انظر كيف جعل لمنافذ البول والغائط أسراحا يضبطها لكي لا يجري جريانا دائما فيفسد على الانسان عيشته .

ثم انظر كيف جعل لحم الفخذين كثيرا كثيفا ليقوي الانسان من ألم الجلوس على الأرض كما يألم الجلوس من نحل جسمه وقل لحمه اذ لم يكن بينه وبين الأرض حائل .

انظر لو كان ذكر الرجل مسترخيا أبدا كيف يصير الماء إلى موضع الخلق ولو كان منعظا أبدا يكون حاله في تصرفاته وهو كذلك بل جعله مستورا كأنه لم تخلق له شهوة .

ثم انظر أليس أنه من حسن التدبير في البناء أن يكون الخلاء في أستر موضع في الدار فلهذا اتخذ المنفذ المهيأ لقضاء حاجة الانسان في أستر موضع من جسده مغيب فيه تلتقي عليه فخذاه بها عليهما من اللحم فتواريه به وتخفي ذكره وذلك مخصوص بالانسان لشرفه .

ثم انظر في خلق الشعر والأظفار لما كانا يطولان وفي تقصيرهما مصلحة جعلنا عديمي الحس حتى لا ينال الانسان ألم عند التزين بقصهما ولولا هذه الحكمة لكان بين أمرين أما أن يدعهما على حالهما فيتشوه خلقه أو يزيل ذلك فيتألم بإزالته .

ثم تفكر في الشعور لو نبتت في العين لأعمت البصر أو في
الفم لنغصت الأكل والشرب أو في راحة الكف لفقدت لذة
اللمس وبعض الأعمال أو في الفرج لكدرت لذة الجماع مع
قبول هذه المواضع لنباتها فيها فسبحان المدبّر المنعم بهذه
النعم .

فانظر كيف قصد بهذا الخلق طريق الصواب وتجنب الخطأ
والضرر ثم فيما جبل عليه الانسان من الاحتياج إلى المطعم
والنوم والجماع (73) وما في ذلك من التدبير المحكم فقد جعل في
طبعه محرك يقتضيه ويستحثه فالجوع والعطش يقتضي طلب
الطعام الذي به حياته وكذلك الشراب الذي به قوامه والنوم
فيه راحة البدن وعموم القوى والشبق يقتضي الجماع الذي به
دوام النسل وبقاؤه فلو كان الانسان انما يتناول الطعام
والشراب لمعرفته بالحاجة إليه ولم يجد من طباعه ما يلجئه إليه
لاشتغل بأسباب ضرورته فتنحل قواه ويهلك كما أنه قد يحتاج
إلى دواء يكرهه وفيه صلاحه وليس في جبلته داعية له فيدافع
في تناوله فيمرض أو يموت فكذلك لو كان يفعل النوم ويدخله
على جسمه باختياره لتشاغل عنه ببعض مهماته فيهلك جسمه
بالتعب والنصب .

(73) الدوافع والحاجات

وكذلك لو كان اقدامه على الجماع انما هو لرغبة حصول
الولد لا نقطع النسل لما يعارضه من الأسباب المشغلة فانظر
كيف جعل فيه بالطبع ما يضطره إلى حصول هذه الفوائد .

انظر كيف رتب هذه القوى بهذا الترتيب المحكم
العجيب فصار البدن بما فيه بمنزلة دار للملك فيها حشم وقوم
موكلون بالدار فواحد لامضاء حوائج الحشم وايراد ماء لهم
 وآخر لقبض ما يرد وخزنه إلى أن يعالج ويهيأ وآخر لاصلاح
ذلك وتهيته واصلاحه مما قبل وآخر لكسح ما في الدار من
الأقذار واخراجهم فالملك في هذا المثل هو الخالق العليم
سبحانه والدار هي بدن والحشم هي الأعضاء والقوم في هذه
القوى الأربع التي هي النفس وموقعها من الانسان بمعنى
الفكر والوهم والعقل والحفظ والغضب وغير ذلك أرأيت لو
نقص من الانسان من هذه الصفات الحفظ وحده كيف كان
يكون حاله ان كان لا يحفظ ما له وما عليه وما أصدر وما أورد
وما أخذ وما رأى وما سمع وما قال وما قيل له ولم يذكر من
أحسن إليه ولا من أساء له ولا من نفعه عن ضره وكان لا
يهتدى لطريق ولو سلكه ولا لعلم ولو درسه ولا ينتفع بتحريره
ولا يستطيع أن يعتبر بمن مضى .

فانظر إلى هذه النعم كيف موقع الواحدة منها فكيف
جميعها . وأعجب من نعمة الحفظ نعمة النسيان فلولا النسيان

فانظر

ما سلا الانسان عن مصيبة فكان لا ينقص له حسرة ولا يذهب عنه حقد ولا يستمتع بشيء من لذات الشهوات الدنيوية مع تذكر الآفات والفجائع والمغضبات وكان لا يمكن أن يتوقع غفلة من ظالم ولا فترة ولا ذهولا من حاسد أو قاصد مضرة.

فانظر كيف جعل الله فيه سبحانه الحفظ والنسيان وهما متضادان وجعل للانسان في كل منهما ضروبا من المصالح . ثم انظر إلى ما خصه به دون غيره من الحيوان من الحياء فلولا لم تقل العثرات ولم تقض الحاجات ولم يقر الضيف ولم يرغب في الجميل فيفعل ولا يتجافى عن القبيح فيترك حتى ان كثيرا من الأمور الواجبة انما تفعل لسبب الحياء من الناس فتزد الأمانات وتراعى حقوق الوالدين وغيرهما ويعف عن فعل الفواحش إلى غير ذلك من أجل الحياء فانظر ما أعظم موقع هذه النعمة في هذه الصفة .

وانظر ما أنعم الله به من النطق يميز به عن البهائم فيعبر بها في ضميره ويفهم عن غيره ما في نفسه . وكذلك نعمة الكتابة التي تفيد أخبار الماضين للباقيين وأخبار الباقيين للآتين وبها تخلد في الكتب العلوم والآداب ويعلم الناس ذكر ما يجري بينهم في الحساب والمعاملات ولولا الكتابة لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض ودرست العلوم وضاعت الفضائل والآداب وعظم الخلل الداخل على الناس في

أمرهم بسبب عدمها فان قلت إن الكلام والكتابة مكتسبة
للانسان وليست بأمر طبيعي ولذلك تختلف الخطوط بين عربي
وهندي ورومي إلى غير ذلك وكذلك الكلام هو شيء يصطلح
عليه فلذلك يختلف .

قلنا ما به تحصل الكتابة من اليد والأصابع والكف المهيأ
للكتابة والذهن والفكر الذي يهتدى به ليس بفعل الانسان
ولولا ذلك لم يكن ليكتب أبدا ف سبحانه المنعم عليه بذلك
وكذلك لولا اللسان والنطق الطبيعي فيه والذهن المركب فيه
لم يكن ليتكلم أبدا ف سبحانه المنعم عليه بذلك .

ثم انظر إلى حكمة الغضب المخلوق فيه يدفع عن نفسه
به ما يؤذيها وما خلق فيه من الحسد (74) فبه ما يسعى في جلب
ما ينتفع به غير أنه مأمور بالاعتدال في هذين الأمرين فان
جاوز الحد فيهما التحق برتبة الشياطين بل يجب أن يقتصر في
حالة الغضب عن دفع الضرر وفي الحسد على الغبطة وهي
ارادة ما ينفعه من غير مضرة تلحق غيره .

ثم انظر ما أعطى وما منع مما فيه أيضا صلاحه فمن ذلك
الأمل فبسببه تعمر الدنيا ويدوم النسل ليرث الضعفاء عن
الأقوياء منافع العمارة فان الخلق أول ما يخلق ضعيف فلولا أنه
يجد آثار قوم أصلوا وعمرؤا لم يكن له محل يأوي إليه ولا آلة

(74) لعله يقصد المنافسة فان الحسد مرض هدام

ينتفع بها فكان الأمل سببا لعمل الحاضرين ما يقع به انتفاع
الآتين وهكذا يتوارث إلى يوم الدين ومنع الانسان من علم
أجله ومبلغ عمره لمصلحة فانه لو علم مدة حياته وكانت
قصيرة لم تنه الحياة ولم ينشرح لوجود نسل ولا لعمارة أرض ولا
لغير ذلك ولو علمها وكانت طويلة لانهمك في الشهوات
وتعدى الحدود واقتحم المهلكات ولعجز الوعاظ عن ايقافه
وزجره عما يؤديه إلى اتلافه فكان في جهله بمدة عمره مصلحة
حصول الخوف بتوقع هجوم الموت ومبادرة صالح الأعمال قبل
الفوات .

ثم انظر إلى ما ينتفع به مما فيه مصالحة وملاذه من أصناف
الأطعمة على اختلاف طعومها وأصناف الفواكه مع اختلاف
ألوانها وبهجتها وأصناف المراكب ليركبها ويحصل منافعتها
وطيور يلتذ بسماعها ونقود وجواهر يقتنيها ويصل إلى أغراضه
ويجدها في مهماته وعقاقير يستعملها لحفظ صحته وبهائم لمأكله
ولغير ذلك من أموره من حرث وحمل وغير ذلك وأزهار وغيرها
من العسريات يتنعم بروائحها وينتفع بها وأصناف من
الملابس على اختلاف أجناسها وكل ذلك ثمرة ما خلق فيه من
العقل والفهم ماذا ركب الله فيه من العجائب ؟

ومن الحكمة البالغة اختلاف العباد في تملك ما ينتفع به بنو
آدم لتمييز منهم الفقير عن الغنى فيكون ذلك سببا لعمارة هذه

الدار ويشتغل الناس بسبب ذلك عما يضرهم في غالب الأحوال فمخالهم فيما اشتغلوا به مثال الصبي فإنه يشتغل لنقص عقله فيما يضر به نفسه ولا يتفرغ فيكون فراغه وبالا عليه وكم عسى أن يعد العاد من الحكم والطائف التي يقصد بها قوام العالم وبقاؤه إلى الأجل المعلوم وهي مما لا تدخل تحت حد ولا يحصرها عد ولا يعلم منتهى حقائقها واحصاء جملتها إلا الحكيم العليم الذي وسعت رحمته وعلمه كل شيء وأحصى كل شيء عددا.

خاتمة هذا الباب

اعلم أن الباري سبحانه وتعالى شرف هذا الآدمي وكرمه فقال سبحانه :

(ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا)

فكان من أعظم ما شرفه به وكرمه العقل الذي تنبه به على البهيمة وألحقه بسببه بعالم الملائكة حتى تأهل به لمعرفة باريه ومبدعه بالنظر في مخلوقاته والاستدلال به على معرفة صفاته بما أودعه في نفسه من حكمة وأمانة قال الله العليم :

(وفي أنفسكم أفلا تبصرون) *

فكان نظره في نفسه وفيما أودع الباري سبحانه فيه من العقل الذي يقطع بوجوده فيه ويعجز عن وصفه من أعظم الدلالات عنده على وجود باريه ومدبره وخالقه ومصوره فإنه ينظر في العقل وكيف فيه التدبير وفنون العلم ومستقر المعرفة وبصائر الحكمة والتمييز بين النفع والضرر وهو مع القطع بوجوده لا يرى له شخصا ولا يسمع له حسا ولا يحس له مجسا ولا يشم له ريحا ولا يدرك له صورة ولا طعما وهو مع ذلك أمر ومطاع وراج ومفكر ومشاهد للغيوب ومتوهم للأُمُور اتسع له ما ضاق عن الأبصار ووسع له ما ضاقت عنه الأوعية يؤمن بها غيبته حجب الله سبحانه عما بين سمواته وما فوقها وأرضه وما تحتها حتى كأنه شاهده أبين من رأى العين فهو موضع الحكمة ومعدن العلم كلما ازداد علما ازداد سعة وقوة يأمر الجوارح بالتحرك فلا يكاد ان يميز بين الهمة بالحركة وبين التحرك بسرعة الطاعة أيهما أسبق وإن كانت الهمة قبل وهو مع تدبيره وعلمه وحكمته عاجز عن معرفة نفسه إذ لا يمكنه أن يصف نفسه بنفسه بصفة وهيئة أكثر من الإقرار بأنه مسلم للذي وصفه للعلم به ومقر بالجهل بنفسه وهو مع جهله بنفسه عالم حكيم يميز بين لطائف التدبير ويفرق بين دقائق الصنع .

* الذاريات 21 .

وتجري الأمور وقد تدبرها ويتوهم العواقب ويمثلها ويدل على الأمور على اختلافها فدل جهله بنفسه وعلمه بما يدبر ويميز أنه مركب مصنوع مصور ومدبر مقهور لأنه مع حكمته واتقاد بصيرته عاجز مهين يريد أن يذكر الشيء فينساه ويريد أن ينساه فيذكره ويرد أن يسر فيحزن ويريد أن يغفل فيذكر ويريد أن يتنبه ويتيقظ فيسهو ويغفل دلالة على أنه مغلوب مقهور وهو مع ما علم جاهل بحقائق ما علم ومع ما دبر لا يدري كم مدى مبلغ نظره ولا كيف ركب نوره ولا كيف أدرك الأشخاص ولا كم قدر قوته ولا كيف تركب ارادته وهمته فاستدل بعلمه وجحده عن حقيقة ما علم أنه مصنوع بصنعة متقنة وحكمة بالغة تدل على الصانع الخالق المريد العليم عز وجل .

ثم خلق في الانسان الهوى موافقا لطباعه فإن استعمل نور العقل فيما أمر به ورد مورد السلامة وفاز غدا بدار الكرامة وان استعمله في اغراض نفسه وهواها حجب عن معرفة أمور لا يدركها غيره مع ما هو متوقع له في الدار الآخرة من الثواب والحجاب والعقاب وهو الآلة له في عمل الصنائع وتقديرها على نحو ما قدرها ودبرها في ذهنه وتخيله واستنباط ما يستنبط بدقيق الفكر ومعرفة مكارم الأخلاق الموجودة في كل أمة وزمان أو استحسان ما يحسن في عوائد العقلاء والفضلاء وتقبيح ما يقبح عندهم بحكم الاعتياد .

فانظر ما شرف هذا الانسان أن خلق فيه ما يفيد هذه المعارف فان الأواني تشرف بشرف ما يوضع فيها ولما كانت قلوب العباد هي محل للمعرفة بالله سبحانه شرفت بذلك ولما سبق في علم الباري سبحانه وإرادته وحكمه بمصير الخلق إلى دار غير هذه الدار ولم يجعل في قوة عقولهم ما يطلعون به على أحكام تلك الدار بل كمل لهم سبحانه هذا النور الذي وهبهم إياه بنور الرسالة إليهم فارسل الأنبياء صلوات الله عليهم مبشرين لأهل طاعته منذرين لأهل معصيته فمدهم بالوحي وهبهم لقبوله وتلقيه فكانت أنوار ما جاء به الوحي من عند الله بالنسبة إلى نور العقل كالشمس بالاضافة إلى نور النجم فدلوا العباد على مصلح دنياهم فيما لا تستقل بأدراكه عقولهم وأرشدوهم إلى مصلح آخرهم التي لا سبيل للعباد أن يعرفوها إلا بواسطتهم وأظهر لهم سبحانه من الدلائل على صدق ما جاؤوا به ما أوجب الإذعان والانقياد لصدق أخبارهم فتمت بذلك نعمة الله على عباده وظهرت كرامته وثبتت حجته عليهم .

فانظر ما أشرف الآدمي ونسله الذين ظهرت منه هؤلاء الفضلات الذين هم قابلون هذه الزيادات الفاضلة ثم تضافرت الشرائع التي هي كالشمس وأنوار العقول التي هي كالنجم فتمت سعادة من سبق له من الله الحسنی وشقاوة من كذب ولم يرد إلا الحياة الدنيا .

ثم أن الله تبارك وتعالى من على الانسان بان خصه برؤيا
يراهها في منامه أو في عينه كشبه المنام يمثل له فيهم بأمثلة
معهودة من جنس ما يعرفه وهي مبشرة أو منذرة له لما يتوقعه
بين يديه كل ذلك مواهب وكرامات من وجود الله سبحانه
وجعل استقامته على الطاعة في قلبه وجوارحه سببا لصدقها في
غالب الأمر ليتعظ أو يقدم على الأمور أو يحجم عنها وهي
الأمور التي انفرد الله بعلم العاقبة فيها واطلع على بعض
الأمور منها من شاء .

باب في حكمة خلق الطير

قال الله سبحانه وتعالى :

(ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن
إلا الله) (76)

اعلم رحمك الله أن الله تعالى خلق الطير وأحكمه حكمة
تقتضي الخفة للطيران ولم يخلق فيه ما يثقله وخلق فيه ما يحتاج
إليه وما فيه قوامه وصرف غذاءه فقسم لكل عضو منه ما
يناسبه فإن كان رخوا أو يابسا أو بين ذلك انصرف إلى كل
عضو من غذائه ما هو لائق به فخلق للطير الرجلين دون
اليدين لضرورة مشيه وتنقله وإعانة له في ارتفاعه عن الأرض
وقت طيرانه وجعلها واسعة الأسفل ليثبت في موطن على
الأرض وهي خف فيه أو بعض أصابع مخلوقة من جلد رقيق
صلب من نسبة جلد ساقيه وجعل جلد ساقيه غليظا متقنا
جدا ليستغنى به عن الريش في الحر والبرد.

وكان من الحكمة خلقه على هذه الصفة لأنه في رعيه
وطلب قوته لا يستغنى عن مواضع فيها الطين والماء فلو
كسيت ساقاه بريش لتضرر بببله وتلوّثه فاغناه سبحانه عن

الريش في موضع لا يليق به حتى يكون مخلصا للطيران وما خلق من الطير ذا أرجل طوال جعلت رقبتة طويلة لينال غذائه من غير حرج بها إذ لو طالت رجلاه وقصر عنقه لم يمكنه الرعي لا في البراري ولا في البحار حتى ينكب على صدره وكثيرا ما يعان بطول المنقار أيضا مع طول العنق ليزداد مطلبه عليه سهولة ولو طال عنقه وقصرت رجلاه أثقله عنقه واختل رعيه وخلق صدره وجعل دائره ملفوفا مرتبا على عظم كهيئة نصف دائرة حتى يحرق في الهواء بغير كلفة .

وكذلك رؤوس أجنحته مدورة إعانة له على الطيران وجعل لكل جنس من الطير منقارا يناسب رعيه ويصلح لما يتغذى به من تقطيع ولقط وحفر وغير ذلك فمنه مخلب للتقطيع خص به الكواسر وما قوته اللحم ومنها عريض مشرشر جوانبه تنطبق على ما يلتقطه انطباقا محكما ومنه معتدل اللقط لأكل الخضر ومنه طويل المنقار للحفر وجعله صلبا شديدا شبه العظم وفيه ليونه ما هي في العظم لكثرة الحاجة إلى استعماله وهو مقام الاسنان في غير الطير من الحيوان .

وقوى سبحانه أصل الريش وجعله قصبا منشوبا فيما يناسبه من الجلد الصلب في الأجنحة لأجل كثرة الطيران ولأن حركة الطيران قوية فهو محتاج إلى الاتقان لأجل الريش وجعل ريشه وقاية مما يضره من حر أو برد ومعونة لتخلله الهواء

للطيران وخص الأجنحة بأقوى الريش وأثبتته وأتقنه لكثرة
دعاء الحاجة إليه وجعل في سائر بدنه ريشا غيره كسوة ووقاية
وجمالا له وثبت أصل جميعه لأنه جبيرته وجماله وجعل في ريشه
من الحكمة أن البلل لا يفسده والأدران لا توسخه فإن أصابه
ما كان أيسر انتفاض يطرد عنه بلله فيعود إلى خفته وجعل له
منفذا واحدا للولادة وخروج فضلاته لأجل خفته وخلق ريش
ذنبه معونة له على استقامته في طيرانه فلولا له لما مالت به
الأجنحة في حال الطيران يمينا وشمالا فكان له بمنزلة رجل
السفينة الذي يعدل بها سيرها وخلق في طباعه الحذر وقاية
لسلامته ولما كان طعامه يتلعه بلعا بلا مضغ جعل لبعضه
منقارا صلبا يقطع به اللحم ويقوم له مقام ما يقطع بالمدينة
وصار يزرد ما يأكله صحيحا وأعين بفضل حرارة في جوفه
تطحن الطعام طحنا يستغنى به عن المضغ وثقل الاسنان
واعتبر ذلك بحب العنب وغيره فإنه يخرج من بطون الحيوان
صحيحا وينسحق في أجواف الطير ثم أنه خلقه يبيض ولا يلد
لئلا يثقل عن الطيران فإنه لو خلقت فراخه في جوفه حتى
يكمل خلقها لثقل بها وتعوق بها عن النهوض للطيران .

أفلا ترى كيف دبر كل شيء من خلقه بما يليق به من
الحكمة انظر إلى من أنزله وألهمه الرقاد على يبيضه فيحضنه
مدة الحضانة من ألهمه أن يلتقط الحب فإذا ماع في باطنه غذى
به أفراخه وهذا نوع من الطير ثم انظر هذا كيف احتمل هذه

المشقة وليست له رؤية ولا فكر في عاقبة ولا أمل يأمله في أفراخه كما يأمل الانسان في ولده من العز والرغد وبقاء الذكر فهل هذا قطعاً إلا الهام الهى من فعل الله سبحانه .

انظر كيف ألهم معرفة حمل الانثى منه بالبيض فاهلهموا حينئذ حمل الحشيش وتوطئته في موضع التحضين والولادة لتكون الرطوبة والتوطئة تحفظ البيض ويكون البيض محفوظاً في المهاد الذي يمهدهونه ويستحسنونه في حال تحضينه .

انظر إلى الحمام كيف ألهم معرفة كمال الفراخ وانتهاء تحضينه للبيض حتى يكشف عن الفرخ ويخرجه وان اتفق في البيض فساد بسبب عرق قام وتركه ثم انظر الهامه بما يزق (٧٧) به فرخه فانه أولاً يزقه بالريح لتستعد حوصلته لقبول ما يوضع فيها ثم بعد ذلك يزقه من أول هضم ثم إذا ماع الغذاء في حوصلته يزقه به حتى يدرجه ويفعل ذلك مرارا حتى يملأ حوصلته فإنه لو أوصله إليه حبا صحيحا لعجز عن هضمه لضعف جسده فانظر ان كان هذا من فعل الطير وحكمته .

ثم انظر عند خروج الفرخ من البيض كيف يسنده إلى جنبه لئلا يفقد الحرارة دفعة واحدة فيضر ذلك به ومن الطير

(٧٧) أي يطعمه بفمه مادة مهضومة أشبه باللبن في الثدييات

ما يخلق على هيئة أخرى لحكمة أخرى ولتعلم أن قدرة الله لا تنحصر في نوع واحد بل كل حال له حكم يقوم بمصلحة ذلك الشيء وذلك ان الدجاج ما فيهم أهلية الزق بل جعلت فراخهم يلتقطون غذاءهم عند خروجهم من البيضة . ثم انظر في الحمام الذكر والأنثى كيف يتداولان على التسخين خوف أن يفسد بيضهم فيعقب هذا صاحبه كأن لهم علما بان عدم هذا التدبير يفسد به بيضهم .

ثم انظر إلى خلق البيضة وما فيها من الحكم لله ففيها الماء الأصفر الخائر والماء الأبيض الرقيق فبعضه لينشأ منه جسده وبعضه يتغذى به إلى أن ينشق عنه وما في ذلك التدبير من الحكم العجيبة وكيف جعل معه غذاءه في بيضة مغلقة تلتقى به إلى حين كماله فيها وخروجه منها ثم انظر في حوصلة الطائر وما في خلقها من التدبير فإن مسلك طعامه إلى القانصة ضيق لا ينفذ إليه إلا قليلا فلو كان لا يلتقط حبه حتى تصل الأولى إلى القانصة لطال الأمر عليه مع ما فيه من شدة الحذر وتجنبه ما يؤذيه فصار ما يحتكره احتراسا لشدة حذره فجعلت له الحوصلة كالمخللة المعلقة أمامه ليودع فيها ما أدرك من الطعام بسرعة ثم ينفذه إلى القانصة على مهل .

وفيهما حكمة أخرى فان الطير الذي يزق أفراده يكون رده الطعام من قرب أسهل عليه ثم تأمل ريش الطائر فإنك تجد

منسوجا نسج الثوب من سلوك رقاق وفيها من اليبس ما يمسك ما حولها ومن اللين ما لا تنكسر معه وهي خاوية قد ألف بعضها إلى بعض تأليف الخيط إلى الخيط والشعر إلى الشعر ثم تجده إذا فتحته أعني النسيج يفتح قليلا ولا ينشق ليدخله الريح فيثقله عن طيرانه وتجد في وسط الريش عمودا غليظا يابسا مثبتا قد نسج عليه كهيئة الشعر ليمسكه بصلابته فلو عدم ذلك وعرضت الريشة دونة لفسخها ما يقابلها من الهواء وهي مع صلابتها مخوفة ليخفف عليه طيرانه .

آنظر إلى الطائر الطويل الساقين والحكمة في طولها أنه يرمى أكثر رعيه في صحصحاح كأنه فوقه مرقب يتأمل ما يدب في الماء فإذا رأى شيئا من حاجته خطأ خطوا رفيقا حتى يتناولوه فلو كان قصير الساقين لكان حين يخطو إلى الصيد يصل بطنه إلى الماء فيهزه فيذعر منه الصيد فيبعد عنه . انظر إلى العصافير وغيرها فإنها تطلب رزقها طول نهارها فلا هي تجده مجموعا في محله وهو أمر جار على سنة الله في خلقه فإن صلاحهم في السعي في طلب الرزق فإن الطير لو وجده ميسرا أكب عليه ولا يقلع عنه حتى يمتلئ فيثقل عن الطيران ولا يستطيع رده أعني قذفه من بطنه مثل طير الماء الكبير فإنه يأكل السمك فإذا امتلأ منه وازعجه مزعج تقيأه حتى يخف للطيران وكذلك الناس أيضا لو وجدوه بلا سعي لتفرغوا فراغا يوقعهم في غاية الفساد .

آنظر إلى هذه الأصناف من الطير التي لا تخرج الا ليلا مثل
البوم والهام والخفافش فان عيشها يتيسر في الجو كالبعوض
والفراش وشبهه فانها منبثة في هذا الجو فجعل عيشه في موضع
أقرب إليه من الأرض ولعل نوره لا يعينه أن يلتقط من الأرض
بدليل أنه لا يظهر في نور الشمس الا مختفيا فالمهم أن يعيش
في الجو من الفراش وغيره آنظر إلى الخفافش لما خلق بغير ريش
كيف خلق له ما يقوم مقامه وجعل له فم وأسنان وكل ما في
البهائم الأرضية من الولادة وغيرها وقدرة على الطيران فآظهر
سبحانه في ان قدرته على الطيران لا تقتصر على ما خلق له
الريش ولا تنحصر في نوع واحد لأنه خلق هذا النوع وخلق
من السمك جنسا يطير على وجه البحر مسافة طويلة ثم ينزل
الماء فسبحان القادر العليم آنظر إلى الذكر والأنثى من الحمام
كيف يتعاونان على الحضانة فإذا احتاج أحدهما إلى قوته ناب
الآخر إلى آخر وقت الحضانة ثم الهمهما على الحضانة فلا
يطيلان الغيبة على البيض إذا خرجا لنيل القوت حتى انهما
يجتمع في أجوافهما البراز للحرص على الرقاد فإذا اضطره
خروج البراز أخرجه دفعة واحدة .

ثم انظر إلى حرص الذكر حين تحمل الأنثى بالبيض
ويقرب أوان وضعها كيف يطردها وينقرها ولا يدعها تستقر
خارجا عن الوكر خشية أن تضع البيض في غير الموضع المهيأ
لوضعه . آنظر كيف يزق أفراخه ويعطف عليها ما دامت

محتاجة إلى الزق حتى إذا كبرت واشتدت ولقطت واستغنت
عن أبويها صارت إذا تعرضت له لنيل ما اعتادت ضربها
وصرفها عن نفسه واشتغل بغيرها

ثم انظر ما خلق الله تعالى في الكواسر من شدة الطيران
حتى لا يسبق له من يطلبه ومن قوة المخلب وحدته في المنقار
والأظفار فكأنّ مخلبها مديّة للقطع وكأنّ مخلب أرجلها
خطاطيف يعلق فيها اللحم حتى تحصل ما تحتاجه من قوتها .

أنظر إلى طير الماء لما جعل قوته في الماء كيف جعل فيه قوة
السباحة والغطس ليأخذ من جوف الماء رزقه فجعل سبحانه
وتعالى لكل صنف من الطيور ما يليق به في تحصيل قوته .

باب في حكمة خلق البهائم

قال الله سبحانه وتعالى :

(والخيول والبغال والحمير لتركبوها وزينة) *

اعلم وفقك الله وإيانا أن الله خلق البهائم لمنافع العباد امتنانا عليهم كما نبهت على ذلك هذه الآية فخلقها الله بلحم مثبت على عظام صلبة تمسكه وعصب شديد وعروق شداد وضم بعضها إلى بعض ولم يجعلها لينة رخوة ولا صلبة كصلابة الحجارة وجعل فوق ذلك جلدا اشتمل على أبدانها كلها لتضبطها وتثقلها لأنها أريد منها القوة للعمل والحمل ثم خلقها سبحانه سمیعة بصيرة ليبلغ الانسان حاجته منها لأنها لو كانت عمياء صماء لم ينتفع بها الانسان ولا وصل بها إلى شيء من مآربه ثم منعت العقل والذهن حكمة من الله لتذل للانسان فلا تمتنع عليه إذا كدها عند حاجته إلى اكدادها في الطحن وحمل الأثقال عليها إلى غير ذلك .

وقد علم الله أن بالناس حاجة إلى أعمالها وهم لا يطيقون أعمالها ولا يقدرّون عليها ولو كلف العباد القيام بأعمالها لاجهدهم ذلك واستفرغ قواهم فلا يبقى فيهم فضلة

لعمل شيء من الصناعات والمهن التي يخصصون بعملها وخلقتهم قابلة لها ولا غنى لهم عنها وتحصيل الفضائل من العلوم والآداب ولو كان ذلك مع اتعابه لا بدانهم يضيق عليهم معاشهم فكان قضاؤه على هذا تسخيرها لهم من النعم العظيمة أنظر في خلق أصناف من الحيوانات وتهيتها لما فيه صلاح كل صنف منها فبنو آدم لما قدروا أن يكونوا ذوي علاج للصناعات واكتساب للعلوم وسائر الفضائل ولا غنى لهم عن البناء والحياكة والنجارة وغير ذلك خلقت لهم العقول والأذهان والفكر وخلقت لهم الأكف ذوات والأصابع ليتمكنوا من القبض على الأشياء ومحاولات الصناعات.

وأكلات اللحم لما قدر أن يكون عيشها من الصيد ولا تصلح لغيره خلقت لها مخالب وسرعة نهضة وانياب. وأكلات النبات لما قدر أن تكون غير ذات صنعة ولا صيد خلقت لبعضها اظلاف كفتها خشونة الأرض إذا جالت في طلب المرعى ولبعضها حوافر مستديرة ذات قعر كأخص القدمين لتتطبق على الأرض وتتهيأ للحمل والركوب.

تأمل التدبير في خلق أكالات اللحم من الحيوانات كيف خلقت ذوات أسنان حداد وأتراس شداد وأفواه واسعة وأعينت بسلح وأدوات تنال بذلك ما تطلبه فإن ذلك كله صالح للصيد فلو كانت البهائم التي عيشها النبات ذوات

مخالب وأنياب كانت قد أعطيت ما لا تحتاج إليه لأنها لا تصطاد ولا تأكل اللحم ولو كانت السباع ذوات أظلاف كانت قد منعت ما تحتاج إليه من السلاح الذي به تصطاد .

فانظر كيف أعطى سبحانه كل واحد من أصناف الحيوان ما يشاكله وما فيه صلاحه وحياته أنظر إلى أولاد ذوات الأربع كيف يجدها تتبع الأمهات مستقلة بنفسها لا تحتاج إلى تربية وحمل كما يحتاج الادميون إذ لم يجعل في أمهاتها ما جعل في أمهات البشر من العقل والعلم والرفق في أحوال التربية والقوة عليها بالفكر والأكف والأصابع المهيأة لذلك ولغيره فلذلك أعطيت النهوض والاستقلال بأنفسها ولذلك ترى فراخ بعض الطير مثل الدجاج والدراج تدرج وتلقط عقيب خروجها من البيضة وما كان منها ضعيفا لا نهوض له مثل فراخ الحمام واليمام جعل في الأمهات عطف عليها (٧٨) فصارت توعى الطعام في حواصلها ثم تمجه في أفواه فراخها ولا تزال كذلك حتى تنهض وتستقل فكل أعطي من اللطف والحكمة بقسط فسبحان المدبر الحكيم . انظر إلى قوائم الحيوان كيف ينتقل

٧٨) يتكون النداء الصوتي عند الدجاجة من مقطع أو مقطعين تنادى بها فراخها عند اكتشافها مصدر الغذاء . فإذا رأت الدجاجة صقرا يقترب من حظيرتها فإنها تطلق صرخة ذات نغمة خاصة تسمعها الفراخ الصغيرة فتهرع إل أقرب ملجأ وتلوذ به .

أزواجاً لتتھياً للمشي فلو كانت أفراداً لم تصلح لذلك لأن المائي منها ينقل منها بعضه ويعينه على مشيه اعتماده على ما لم ينقله منها فذو القوائمتين ينقل واحدة ويعتمد على الأخرى وذو الأربع ينقل اثنتين ويعتمد على اثنتين من خلاف لأنه لو كان ينقل قائمتين من أحد جانبيه يعتمد على قائمتين من الجانب الآخر لم يثبت على الأرض كالسرير ولو كان يرفع يديه ويتبعها برجليه لفسد مشيه فجعل ينقل اليمنى من مقدمه على اليسرى من مؤخره ويعتمد على الآخرين من خلاف أيضاً فيثبت على الأرض ولا يسقط إذا مشى لسرعة التحاقها فيما بين المشي والاعتماد أما ترى الحمار يذل للحمولة والطحن والفرس مبرأ منها والبعير لا تطيقه عدة رجال لو استعصى وينقاد لصبي صاير.

والثور الشديد يذعن لصاحبه حتى يضع النير على عنقه ليستحرضه والفرس تركب ويحمل عليها السيوف والأسنة في الحرب وقاية لراكبها والقطيع من الغنم يراعها صبي واحد فلو تفرقت فأخذت كل شاة منها جهة لنفورها لتعذرت رعايتها وربما أعجزت طالبها وكذلك جميع الحيوان المسخر للانسان وما ذلك إلا لأنها عدمت العقل والتروي فكان ذلك سبباً لتذليلها فلم تلتو على أحد من الناس وان كدها في كثير من الأحوال وكذلك السباع لو كانت ذوات عقل وروية لتواردت على الناس وأنكتهم نكاية شديدة عظيمة ولعسر زجرها

ودفعها ولا سيما إذا اشتدت حاجتها في طلب قوتها ويشتد خللها ألا ترى كيف إذا أحجمت عن الخلق وصارت في أماكنها خائفة تهاب مساكن الناس وتحجم عنها حتى صارت لا تظهر ولا تنبث في طلب قوتها في غالب أحوالها إلا ليلا فجعلها مع شدة قوتها وعظم غذائها كالخائفة من الإنس بل هي ممنوعة عنهم ولولا ذلك لساورتهم في منازلهم وضيققت عليهم في مساكنهم .

ألا ترى الكلب وهو من بعض السباع كيف سخر في حراسة منزل صاحبه حتى صار يبذل نفسه ويترك نومه حتى لا يصل إلى صاحبه ما يؤذيه ثم أنه أعان صاحبه بقوة صوته حتى يتنبه من نومه فيدفع عن نفسه ويألفه حتى يصبر معه على الجوع والعطش والهوان والجفاء فطبع على هذه الخلال لمنفعة الإنسان في الحراسة والاصطياد ولما جعله الباري سبحانه حارسا أمدّه بسلاح وهي الأنياب والأظفار واللهث والقوى ليدعّر به السارق والمريب وليجتنب المواضع التي تحميها ثم انظر كيف جعل ظهر الدابة سطحا مئبّا على قوائم أربع لتمهيد الركوب والحمولة .

وجعل فرجها بارزا من ورائها ليتمكن الفحل من ضرابها إذ لو كان أسفل باطنها كالآدمي لم يتمكن الفحل منها . ألا ترى أنه لا يستطيع أن يأتيها كفاحا كما يأتي الرجل المرأة فتأمل هذه الحكمة والتدبير ولما كان فرج الفيلة تحت بطنها فإذا

كان وقت الضراب ارتفع وبرز للفحل حتى يتمكن من اتيانها فلما لم يخلق في الموضع المخلوق في الأنعام والبهائم خلقت فيه هذه الصفة ليقوم الأمر الذي به دوام التناسل وذلك من عظيم العبر ثم انظر كيف كسيت أجساد البهائم الشعر والوبر ليقبها ذلك الحر والبرد وغيره من الآفات وحملت قوائمها على الأظلاف والحوافر ليقبها ذلك من الحفا وما كان منها بغير ذلك جعلت له أخفاف تقوم مقام الحافر في غيره .

ولما كانت البهائم لا اذنان لها ولا كف ولا أصابع تنهيا للأعمال كفيت مؤونة ما يضر بها بأن جعلت كسوتها في خلقتها باقية عليها ما بقيت فلا تحتاج إلى استبدالها ولا تجديد بغيرها بخلاف الآدمي فإنه ذوفهم وتدبير وأعضاء مهياة لأعمال ما يقترحه وله في اشغاله بذلك صلاح وفيه حكمة فإنه خلق على قابلية لفعل الخير والشر وهو إلى فعل الشر أميل منه إلى فعل الخير فجعلت الأسباب التي يحصل بها ما هو محتاج إليه ليستغل بها عما فيه فساد وهلاك دينه فإنه لو أعطى الكفاية في كل أحواله أهلكه الأشر والبطر وكان من أعظم الحيوانات فسادا في الأرض ولتصرف بعقله الذي هو مخلوق لينال به السعادة إلى ما فيه شقاوته .

ثم ان الآدمي مكرم يتخير من ضروب الملابس ما شاء فيلبس منها ما شاء ويتزين بها ويتجمل ويتلذذ منها بما يشاء ويكمل

بها زينته وجماله وبهاءه في عين من يصحبه ويحب قربه ويطيب
بذلك رائحته وينعش نفسه وهذا من باب النعمة عليه
والكرامة له بخلاف البهائم فإنها غنية عن هذا كله . أنظر
فيها ألهم الله البهائم والوحوش في البراري فإنها توارى أنفسها
كما يوارى الناس موتاهم فما أحس منها بالموت توارى بنفسه
إلى موضع يحتجب فيه حتى يموت وإلا فأين جثث السباع
والوحوش وغيرها فإنك لو طلبت منها شيئا لم تجده وليست
قليلة فيخفى أمرها لقلتها بل لو قال قائل أنها أكثر من الإنس
لم يبعد لأن الصحاري قد امتلأت من سباع وضباع وبقر
وحمير ووعول وإبل وخنزير وذئاب وضروب من الهوام
والحشرات وأصناف من الطير . وغير ذلك مما لا يحصى عدده
وهذه الأصناف في كل يوم يخلق منها ويموت منها ولا يرى لها
رسم موجودة والذي أجرى الله به عادته أن تكون في أماكنها
فإذا أحست بالموت أتت إلى مواضع خفية فتموت فيها فانظر
هذا الأمر الذي ألهمه هذه الأصناف في دفن جثثها بما فطرت
عليه وشخص لبني آدم بالفكر والتروي .

تأمل الدواب كيف خلقت أعينها شاخصة أمامها لتتأمل ما
بين يديها فلا تصدم حائطا ولا تتردى في حفرة وإذا قربت من
ذلك نفرت منه وأبعدت نفسها عنه وهي جاهلة بعاقبة ما
يلحقها منه أليس الذي جبلها على ذلك أراد صلاحها

وسلامتها لينتفع بها ثم انظر إلى فمها مشقوقا إلى أسفل الخنطم
تتمكن من نيل العلف والرعي ولو جعل كفم الانسان لم
تستطع أن تتناول شيئا من الأرض وأعينت بالجحفة لتقصم
بها ما قرب منها فألهمت قصم ما فيه صلاحها وترك ما لا غذاء
لها فيه ولا صلاح انظر ما كان من البهائم كيف يميز الماء
في شربه مزا وكيف خلقت فيه شعرات حول فمه يدفع بها ما
كان على وجه الماء من القذى والحشيش ويحركها تحريكا يدفع
به الكدر عن الماء حتى يشرب صفوه فتقوم لها هذه الشعرات
مقام فم الانسان .

ثم انظر إلى ذنب البهيمة وحكمته وكيف خلق كأنه غطاء
في طرفه شعر فمن منافعه أنه بمنزلة الغطاء على فرجها ودبرها
ليسترها ومنها أن ما بين دبرها وطريق بطنها أبدا يكون فيه وضرب
يجمع بسببه الذباب والبعوض ويجمع أيضا على مؤخرها
فأعينت على دفع ذلك بتحريك ذنبها فصار كأنه مذبة في
يدها تذب بها وتطرد عنها ما يضر بها ثم أنها تعطف برأسها
فتطرد به ما في مقدمها من الذباب أيضا ثم أن الدابة أيضا
أعينت بحركة مختصة وذلك أن الذباب إذا وقع عليها في
مواضع بعيدة من رأسها وذنبها حركت ذلك الموضع من
جلدها تحريكا تطرد به الذباب وغيره منها وذلك من عجيب
الحكمة فيما لا ينتفع بيدين ومن الحكمة فيه أيضا أن الدابة
تستريح بتحريكه يمنة ويسرة لأنها لما كان قيامها على أربع

اشتغلت يداها أيضا بالحمل لبدنها والتصرف فجعل لها في تحريك ذنبها منفعة وراحة وأعينت بسرعة حركته لئلا يطول ألمها بما يعرض لها ومن الحكمة فيه أن البهيمة إذا وقعت في بركة أو مهواة أو وحلت في طين أو غيره فلا تجد شيئا أهون على نهوضها وخلاصها منه من الرفع بذنبها ومن ذلك خيف على حملها أن ينقلب على رقبته عند هبوطها من مكان مصبوب أو ليسبقها رأسها فتكب على وجهها فيكون مسكها بذنبها في هذه المواضع يدها ويعينها على اعتدال سيرها وسلامتها مما خيف منه عليها إلى غير ذلك من مصالح لا يعلمها إلا الحكيم العليم .

انظر إلى مشفر الفيل وما فيه من الحكمة والتدبير فإنه يقوم مقام اليد في تناول العلف وايصاله إلى فمه فلولاً ذلك ما استطاع أن يتناول شيئاً في الأرض إذ لم تجعل له عنق يمدّها كسائر الأنعام فلما عدم العنق في هذا الخلق جعل له هذا الخرطوم فيتناول به ما يحتاجه فسبحان اللطيف الخبير، انظر كيف جعل هذا الخرطوم وعاء يحمل فيه الماء إلى فمه ومنخراً يتنفس منه وآلة يحمل بها ما أراد على ظهره أو يناول من هو راكب عليه انظر إلى خلق الزرافة لما كان منشأها في رياض شاهقة خلق لها عنقاً طويلاً لتدرك قوتها من تلك الأشجار تأمل في خلق الثعلب فإنه إذا حفر له بيتاً في الأرض جعل له فوهتين أحدهما يتسرب منها والأخرى يهرب

منها ان طلب ويرقق مواضع في الأرض في بيته فإن طلب من المواضع المفتوحة ضرب برأسه في المواضع التي رققها فخرج من غير المنافذ وهي المواضع التي نحتها.

انظر ما خلق الله تبارك وتعالى في جبلته لصيانة نفسه ، وجملة القول في الحيوان أن الله تبارك وتعالى خلقه مختلف الطباع والخلق فما كان منه ينتفع الناس بأكله خلق فيه الانقياد والتذلل وجعل قوته النبات وما جعل منه للحمل جعله هادئ الطبع قليل الغضب منقادا منفعلا على صور يتهيأ منه الحمل وما كان منه ذا غضب وشر إلا أنه قابل للتنظيم إذا نظم خلق فيه هذا القبول ليستعين العباد بصيده وحراسته وأعين بالآلات قد تقدم ذكرها ومن جملة ذلك الفيل فإنه ذو فهم مخصوص به وهو قابل للتأنس والتعلم فيستعان به في الحمل والحروب ومنها ما له غضب وشر إلا أنه متأنس بالانسان لمنفعته كالهرة ومن الطير ما للناس به انتفاع لما فيه من الألفة والتأنيس فمن ذلك الحمام يألف موضعه فتنتقل بسببه الأخبار بسرعة إذا عدت حاجة إلى ذلك . وجعله الله سبحانه كثير النسل فيكون منه طعام ينتفع به ومن ذلك البازي فإن طباعه تنتقل إلى التأنس وإن كان في طبعه مباينا إلا أنه لما علم الله أنه ينتفع بصيده جعل فيه القبول للتنظيم حتى خرج عن عادته وبقي يعمل ما يوافق أصحابه وقت الصيد وما خفي من الحكم في خلق الله تعالى أكثر مما علم .

باب في حكمة خلق النحل والنمل والعنكبوت

ودود القز والذباب وغير ذلك

قال الله سبحانه وتعالى :

(وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون) (٧٩)

انظر إلى النمل وما ألهمت له في احشادها في جمع قوتها وتعاونهم على ذلك واعداده لوقت عجزها عن الخروج والتصرف بسبب حر أو برد والهمت في قلب ذلك من الحزم ما لم يكن عند من يعرف العواقب حتى تراها في ذلك إذا عجز بعضها عن حمل ما يحمله أو جهد به أعانه آخر فيه فصارت متعاونة (٨٠) على النقل كما يتعاون الناس على العمل الذي لا يتم

٧٩) الأنعام ٣٨

٨٠) يربو النمل على ستائة نوع . والتجارب على النمل أثبتت ان بالنمل غدة تفرز مادة قلوية ذات رائحة مميزة تخطها على الأرضس ابرة في أسفل بطن النملة فإذا ما حاول أحد مسح الطريق الذي خطته هذه الابرة يعم الاضطراب جهوع النمل . ويبدأ بالبحث عن أفراد عائلته بطريقة الملامسة بقرون الاستشعار . (مجلة الأمة العدد ٣٥ عجائب المخلوقات)

إلا بالتعاون ثم أنها ألهمت حفر بيوت في الأرض تبتدئ في ذلك باخراج ترايبها وتقصد إلى الحب الذي منه قوتها فتقسمه خشية أن ينبت بنداوة الأرض فمن خلق هذا في جبلتها إلا الرحمن الرحيم ثم إذا أصاب الحب بلل أخرجته فنشرته حتى يجف ثم انها لا تتخذ البيوت إلا فيما علا من الأرض خوفا من السيل أن يغرقها ثم انظر إلى النحل وما ألهمت إليه من العجائب (81) والحكم فإن الباري سبحانه جعل لها رئيسا تتبعه وتهتدي به فيما تناله من أقواتها فإن ظهر مع الرئيس الذي تتبعه رئيس آخر من جنسه قتل أحدهما الآخر وذلك لمصلحة ظاهرة وهو خوف الافتراق لأنهما إذا كانا أميرين وسلك كل واحد منهما فجاء افترق النحل خلفهما ثم أنها ألهمت أن ترعى رطوبات من أعلى الأزهار فتستحيل في أجوافها عسلا فعلم من هذا التسخير ما فيه من مصالح العباد من شراب فيه شفاء

81 (تقوم الشغالة في عالم النحل بالبحث عن الغذاء . فإذا وجدته تعود إلى بقية النحلات في الخلية وهي تهتز - لا اراديا - بعدة رقصات أمام النحلات التي تستطيع فهم معنى كل رقصة . فهناك نوعان من الرقص تؤديهما النحلة الشغالة هي : الرقصة الدائرية والرقصة الاهتزازية . النوع الأول تؤديه عندما تكون المسافة بين الخلية ومصدر الغذاء لا تتعدى خمسين مترا . والرقصة الثانية إذا كانت المسافة تصل إلى تسعين مترا . وإذا زادت المسافة عن تسعين مترا تكرر الرقصة خمس مرات كل 15 ثانية . (الأمة العدد 35 عجائب المخلوقات)

للناس كما أخبر سبحانه وتعالى وفيه غذاء وملاذ للعباد وفيه من أقوات فضلات عظيمة جعلت لمنافع بنى آدم فهي مثل ما يفضل من اللبن الذي خلق لمصالح أولاد البهائم وأقواتها وما فضل من ذلك ففيه من البركة والكثرة ما ينتفع به الناس .

ثم انظر ما تحمله النحل من الشمع بارجلها لتوعى فيه العسل وتحفظه فلا تكاد تجد وعاء أحفظ للعسل من الشمع في الأجناح فانظر في هذه الذبابة هل في علمها وقدرتها جمع الشمع مع العسل أو عندها من المعرفة بحيث رتبت حفظ العسل مدة طويلة باستقراره في الشمع وصيانتها في الجبال والشجر في المواضع التي تحفظه ولا يفسد فيها ثم انظر لخروجها نهارا لرعيها ورجوعها عشية إلى أماكنها وقد حملت ما يقوم بقوتها ويفضل عنها ولها في ترتيب بيوتها من الحكمة في بنائها حافظ لما تلقيه من أجوافها من العسل ولها جهة أخرى تجعل فيها برازها مباعدة عن مواضع العسل ، وفيها غير هذا مما انفرد الله بعلمه .

انظر إلى العنكبوت وما خلق فيها من الحكمة فان الله خلق في جسدها رطوبة (82) تنسج منها بيتا لتسكنه وشركا

(82) العناكب وجميع المفصليات تتمكن من مقاومة الجفاف بواسطة جلدها المضاد للماء فإن في جسدها رطوبة ذاتية . فجسدها مغطى بطبقة منية من الشمع تمنع التبخر . وعلى الرغم من حاجتها للتنفس إلا ان

لصيدها فهي مخلوق من جسدها وجعل الله غذاءها من أقواتها ينصرف إلى تقويم جسدها وإلى خلق تلك الرطوبة المذكورة فتنصبه أبدا مثل الشرك وفي ركن الشرك بيتها وتمكن في بيتها بحيث يغيب شخصها والشرك من خيوط رقاق تلتف على أرجل الذباب والناموس وما أشبه ذلك فإذا أحست أن شيئا من ذلك وقع في شركها خرجت إليه بسرعة وأخذته محتاطة عليه ورجعت إلى بيتها فتقتات بها يتيسر لها من رطوبة تلك الحيوانات وإن كانت مستغنية في ذلك الوقت شكلته وتركته إلى وقت حاجتها فانظر ما جعل الله فيها من الأسباب لحصول قوتها فبلغت في ذلك ما يبلغه الانسان بالفكر والحيلة كل ذلك لصلاحها ولنيل قوتها ولتعلم أن الله هو المدبر لهذا .

ثم انظر من العجائب دود القز وما خلق فيه من الأشياء التي يتحير منها ويذكر الله عند رؤيتها فإن هذا الدود خلق لمجرد مصلحة الانسان ومنافعه فإن هذا الحيوان الذي يخلق من جسمه الحرير وذلك أن صورة البزر تحضن حتى إذا همى عاد دودا كالذر فيوضع هذا الدود على ورق التوت فيتغذى منه

= فتحات جهازها التنفسي تبقى مغلقة بعضلات خاصة ولا تفتح إلا عندما يتراكم ثاني اكسيد الكربون في الجسم فتفتح للسماح له بالخروج وادخال الأوكسجين بدلا منه . كما انها لا تستخدم الماء في التبول لذلك فإن بولها عبارة عن بلورات جافة . وبهذا فهي توفر قدرا من الماء داخل جسمها .

فلا يزال يزعى منه حتى يحفر جسمه فينبعث إلى غزل جوز
الحرير فلا يزال كذلك حتى يفنى جسمه وتعود جوزة حرير
ويصير هو جسما ميتا لا حياة فيه .

ثم انظر فان الباري سبحانه لما أراد حفظ هذا الجنس ببقاء
نسله عندما ينتهي من غزل الحرير ويبقى ذلك الجسم يقلبه
الله إلى صورة طائر صغير قريب من صورة النحل فيجمع على
بساط أو غيره وهو في رأي العين جنس واحد لا يتميز منه
الذكر من الأنثى فيعلو الذكر منه على ظهر الأنثى ويقيم على
ظهرها فتحبل لوقتها وتلد لوقتها مثل ذلك البزر الذي حضن
أولا ثم يطير فيذهب فلا يبقى بها انتفاع إذ قد حصل منها
المقصود وهو ذلك البزر.

فانظر من ألهمها الرعي من ذلك الورق حتى ترتبت منه ومن
ألهمها إلى غزل أجسادها حريرا حتى يعنى بها غزلته ومن ربى
لها أجنحة وقلب صورتها حتى صارت على هيئة يمكن فيها
اجتماع الذكر والأنثى لتناسلها ولوبقيت على صورتها الأولى لم
يأت منها تناسل ولا هذا الاجتماع ثم انظر ما يسره الباري
سبحانه من عمل ما غزلته هذه الدودة على من يعمله من بني
آدم حتى يكون منه أموال كثيرة وملابس عظيمة وزينة وانظر
هذا التسخير العجيب في هذا الحيوان اللطيف وما أظهر فيه
سبحانه من بديع الصنع وعجيب الفعل وعظيم الاعتبار وما

جعل فيه من البرهان والآيات على بعث الأموات وإعادة
العظام الرفات سبحانه لا إله إلا هو العلي العظيم .

ثم انظر الذبابة وما أعينت به في نيل قوتها فإنها خلقت
بأجنحة تسرع بها إل موضع تنال فيه قوتها وتهرب بها عما
يهلكها ويضرها وخلق لها ستة أرجل تعتمد على أربع وتفضل
اثنتين فإن أصابها عثار مسحته بالرجلين اللذين تليهما وذلك
لرقة أجنحتها ولأن عينها لم يخلق لها أهداب لأنها بارزتان عن
رأسها وجعل هذا الحيوان وما جرى مجراه مما يتعلق ببني آدم
ويقع عليهم دائما وينغص عليهم عيشهم ليعرفهم الباري
سبحانه هوان الدنيا حتى تصغر عندهم ويهون أمر فراقها
وهو وجه من وجوه الحكمة عليهم تأمل كثيرا من الحيوان
الصغير عند تلمسه يعود كأنه جماد لا حراك به ويبقى على ذلك
ساعة ثم يتحرك ويمشي وهل ذلك إلا لأن لا يصطاد إذا دلت
هيئته على عدم حياته فإذا كان شبيها بالجماد ترك كما ترك
سائر الحجارة .

تأمل العقاب عندما يصطاد السلحفاة يجدها كأنها حجر
ولا يجد فيها موضعا لأكله فيصعد بها في مخالبه حتى إذا بعد
من الأرض اعتدل بها على جبل أو حجارة وأرسلها فتهشمها
الوقعة فيسقط عليها فيأكلها فأنظر كيف ألهم الطريق في نيل
قوته من غير عقل ولا روية أنظر إلى الغراب لما كان مكروها

خلق في طبعه الحذر لصيانة نفسه حتى كان يعلم الغيب فيمن يقصده والهم الاحتيال في اخفاء عشه لصون فراخه وقل احتفاله بالأنثى خشية أن تشغله عن شدة حذره ولذلك قل أن يرى مجتمعا مع أنثى فهذا أبدا دأبه وحاله مع من له عقل وفطنة وتراه مع البهائم على خلاف ذلك فيقف على ظهورها ويأكل من دم البعير ومن أرواث الدواب وقت تبرزها وإذا وجد شيئا من قوته وأكل منه وشيع دفن باقيه حتى يعاوده وقتا آخر فمن خلق هذا في طبعه ودبره بهذا التدبير العجيب إلا الله لأنه لا عقل له ولا روية، آنظر إلى الحداة لما كانت مكروهة حفظت نفسها بقوة طيرانها وتعاليلها وحفظت في أمر قوتها بقوة بصرها فإنها ترى ما تقتات به في الأرض مع علوها في الجوفتنحط نحوه بسرعة والهمت معرفة من هو مقبل ومن هو مدبر فتخطف ما تحفظه من الناس من ورائهم ولا تحطف مما يستقبلها لئلا يمنعها المستقبل بيديه واعينت لما كان غذاؤها من هذه الوجوه بأن جعلت لها مخالب كأنهم السنانير لا يكاد يسقط منها ما ترفعه فسبحان المدبر الحكيم .

انظر إلى الحيوان المسمى الخرباء وما فيه من التدبير فإنه لما خلق بطيئا في نهضته وكان لا بد له من قوته فخلق على صورة عجيبة فخلقت عيناه تدور لكل جهة من الجهات حتى تدرك صيده من غير حركة في جسده ولا قصد إليه ويبقى جامدا كأنه ليس من الحيوان ثم أعطي مع السكون أن يتشكل في لون

الشجرة التي يكون عليها حتى يكاد يختلط لونه بلونها ثم إذا
 قرب منه ما يصطاده من ذباب أو غيره أخرج لسانه فيخطف
 ذلك بسرعة خفوق البرق ثم يعود على حالته كأنه جزء من
 الشجرة وجعل الله لسانه بخلاف المعتاد ليلحق به ما بعد
 عنه بثلاثة أشبار أو نحوه فقد سخر له ما يصطاد به على هذه
 المسافة وإذا رأى ما يريعه ويخيفه تشكل على هيئة وشكل ينفر
 منه من يصطاده من الحيوان ويكرهه فانظر هذه التي خلقت فيه
 لأجل قلة نهضته فاعين بها ، انظر إلى الحيوان الذي يسمى
 سبع الذباب وما أعطى من الحيلة والرفق فيما يقتات به فإنك
 تجده يحس الذباب قد وقع قريبا منه فيركد مليا حتى كأنه ميت
 أو جماد لا حراك به فإذا أحس ان الذباب قد إطمأن دب ديبا
 رقيقا حتى لا ينفره حتى إذا صار قريبا منه بحيث ينال بوثة
 وثب عليه فأخذه فإذا أخذه اشتمل عليه بجسده كله خشية
 ان يتخلص منه الذباب فلا يزال قابضا عليه حتى يحس
 ببطلان حركته فيقبل عليه فيتغذى منه بما يلائمه منه فانظر
 إلى هذه الحيلة أهى من فعله أو هي مخلوقة من أجل رزقه
 فسبحان الباري الحكيم . انظر إلى الذر والبعوض الذي أوهن
 الله قوتها وأصغر قدرها وضرب بها المثل في كتابه تجد فيها
 نقصا عما فيه صلاحها من جناح تطير به ورجل تعتمد عليها
 وبصر تقصد به موضعا تنال فيه قوتها وآلة لهضم غذائها
 واخراج فضلتها وانظر هل يمكن أن يعيش من غير قوت وهل

يمكن أن يكون القوت في غير محل واحد واخراجه فضلته من غير منفذ

تم انظر كيف دبرها العزيز الحكيم فسواها وقدر أعضائها واستودعها العلم والمعرفة بمنافعها ومضارها وكله دليل على علمه وقدرته وحكمته البالغة فهي بعوضة صغرت في النظر ومع هذا فلو أن أهل السموات والأرض من الملائكة فمن دونهم من العالمين وسائر الخلق أجمعين ارادوا أن يعرفوا كيف قسم الخالق سبحانه أجزاءها وحسن اعتدال صورتها في أعضائها لما قدروا على ذلك إلا تظاهرا لمنظر العجز منهم على عدم حقيقة الخبر ولو اجتمعوا ثم تفكروا كيف ركبت معرفتها حتى عرفت أن ما بين الجلد واللحم دما وهو الذي هو غذاؤها ولولا معرفتها به لم تقدم على مصه حتى تطعمه وكيف همتهما التي قصدت بها أن تطير إلى الموضع الذي اهتمها ربه أن فيه غذاها وكيف خرق سمعها وكيف سمعت حس من يقصدها وكيف عرفت أن نجاتها في الفرار إذا ولت هاربة ممن قصدها فلن يدرك ذلك منها الخلائق أجمعون ولو جزؤوها ما ازدادوا في أمرها إلا عمی وبعدا عن المعرفة فهذه الحكمة والقدرة في بعوضة فما ظنك بجميع مخلوقاته سبحانه وتعالى علوا كبيرا .

باب في حكمة خلق السمك وما تضمن

خلقها من الحكم

قال الله تعالى :

(وهو الذي سخر لكم البحر لتأكلوا منه لحما طريا) *

انظر واعتبر بما خلق الله تعالى في البحار والأنهار من الحيوان المختلف الصور والأشكال وما فيه من الآيات البينات فإنه تعالى لما جعل مسكنه في الماء لم يخلق له قوائم ولم يخلق فيه رئة لأنه لا يتنفس وهو منغمس في لجة الماء. وخلق له مكان القوائم أجنحة شداد (83) يحركها من جانبه فيسير بها حيث شاء وكسا جلده متداخلة صلبة تخالف لحمه متراسة كأنها درع لتقيه ما يعمد إليه وما يؤذيه وما لم يخلق له من السمك تلك الكسوة وهي القشر المتداخل المخلوق على ظاهره خلق له جلدا غليظا متقنا يقوم له مقام تلك الكسوة لغيره وخلق له بصرا وسمعا وشما ليستعين بذلك على نيل قوته والهرب مما يؤذيه .

* النحل 14

(83) يقصد الزعانف

وانظر كيف أعطى في قعر البحر ما يناسبه في نيل القوت والهرب مما يضره ولما علم الله سبحانه أن بعضه غذاء لبعض كثره وجعل أكثر أصنافه يحمل ولم يجعل الحمل منه مخصوصا بالأنثى دون الذكر كحيوان البربل جعل الذكر والأنثى جنسا واحدا (84) يخلق في بطونها مرة واحدة في وقت معلوم ذريعة مجتمعة مشتملة على عدد لا ينحصر فيخلق من جوف واحدة عددا لا يحصى وذلك من كل بذرة حوتا من الجنس ومن جنس آخر يخلق في الأنهار وغيرها بغير ثوالد فيخلق منها أعدادا لا تحصى دفعة واحدة ومنه صنف يتولد منها بيض تفقص البيض بحرارة الشمس خرج من كل بيضة واحدة من الجنس ولما علم الله سبحانه وتعالى أن السمك في البحر لا يمكن أن يحضن ما يخرج من بزره ألقى الروح في بزر جميعه عندما يولد فيجد فيه جميع ما يحتاجه من الأعضاء عند القاء الروح فيه فيستقل ولا يفتقر إلى أحد في كمال خلقه فانظر هذه الحكمة واللفظ حيث لم يمكن حضائته في البحر ولا تربيته ولا معونته البتة جملة مستقلا بنفسه مستعينا عن ذلك كله ثم ان الله سبحانه كثره لأن منه قوت جنسه وقوتا لبني آدم والطير فلذلك كان كثيرا ثم انظر سرعة حركته وان لم تكن له آلة كغيره من الحيوان وانظر إلى حركة ذنبه وانقسامه وكيف يعتدل بذلك في سيره كما تعتدل

(84) ليس كما يقول المؤلف بل هناك ذكر وأنثى والأنثى من السمك تضع بيضها ثم يمر الذكر على البيض فيلقحه بالسائل المنوي .

السفينة برجلها في سيرها وخلقت ارياشه ألواحاً من جانبيه ليعتدل بهما أيضاً في سيره فهو بمنزلة المركب .

وانظر إلى عظامه كيف خلقت مثل العمود بينى عليها ففي كل موضع منه ما يليق به من صورة العظم المشاكل لذلك العضو فهو كانشاء المركب يمتد العظم الجافي الذي هو قوته ويخرج من اضلاع إلى مرقا البطن والظهر وعظام الرأس يحتاج إليه من الأمر وبه قوامه وانظر إلى ما كان منه كاسرا كيف أعين على نيل قوته بصلاية اللحم وقوة النهضة وكثرة الأسنان حتى أنه لكثرة أسنانه تكون العضة الواحدة تجزيه عن المضغ .

انظر إلى ما خلق الله في البحر ضعيفا قليل الحركة مثل أصناف الصدف والحلزوني كيف حفظ بأن خلق عليه ذلك الحصن الذي هو صلب كالرخام ليصونه ويحفظه وجعله له بيتا وسكنا وجعل ما يلي جسده ناعما انعم ما يكون وربما ضربت بعض أصناف الحلزون حتى لا يكون فيه مطمع البتة وأصناف منه خلقت في محائر مفتوحة لا يمكن صيانتها لنفسها لتغلقها ولا يضيق مسلكها فجعل الله لها من الجبال والحجارة مغطا وجعل لها أسبابا تلتصق بها في الجبل فلا يستطيع إخراجها إلا بغاية الجهد وجعل لها قوتا من رطوبات الجبل تتأتى حياتها بذلك وأما الحلزون (85) الذي بيته كأنه كوتب

(85) لعله يقصد القواقع والمحار

فإنه يخرج رأسه يرعى فإذا أحس بها يؤذيه أدخل رأسه في بيته وختم عليه بطابع صلب يقرب من صلابة بيته فيغيب أثره بالجملة .

فانظر هذا اللطف وإن الله لا يهمل شيئا واعلم ان الله حافظ لما في البحار وما في الأكام والجبال فتبارك الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى .

وانظر إلى أنواع السمك يرعى قرب البر الصغير منها والجافي في الأعماق وقد خلق الله في جوفه صبغا كأنه حبر وهو يخلق له فيه من فضله غذاءه كما يخلق اللبن في الضرع فإذا أحس بها يؤذيه اخرج من جوفه ما يعكر موضعه ثم يذهب في الماء الذي تغير فلا يعرف كيف ذهب ولا كيف طريقه من تغير الماء الذي تغير فلا يعرف كيف ذهب ولا كيف طريقه من تغير الماء فعل الله ذلك له وقاية لنفسه وفعل فيه مصالح آخر لا يعلمها إلا خالقها .

انظر إلى نوع آخر من السمك أعين باجنحة مثل أجنحة الخفافش ينتقل بها عند وقوع الأنواء من موضع إلى موضع في الهواء من وجه الماء يظهر لمن لا يعرف ذلك أنه من طيور البر . انظر إلى نوع آخر من أنواع السمك ضعيف وكثيرا ما يكون في الأنهار وجعل الله فيه خاصية تصونه إذا اقتربت منه تأخذه وفيه الروح تحدر البدن واليد فيعجز قاصده عن أخذه بذلك السبب فلو ملئت الكتب بعجائب حكم الله في خلق واحد لامتألت الكتب وعجز البشر عن استكمالها وما هو المذكور في كل نوع تنبيه إلى أمر عظيم .

باب في حكمة خلق النبات وما فيه من عجائب

حكمة الله تعالى

قال الله تعالى :

(أَمِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَمْ يَمْعَ اللَّهُ بِكُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ) (٨٦)

انظر وفقك الله وسددك إلى ما على وجه الأرض من النبات وما في نظره من النعيم في حسن منظره وبهجته ونضارته التي لا يعدلها شيء من مناظر الأرض .

ثم انظر إلى ما جعل الباري فيه من ضروب المنافع والمطاعم والروائح والمآرب التي لا تحصى وخلق فيه الحب والنوى مخلوقا لحفظ أنواع النبات وجعل الثمار للغذاء والتفكه والأتبان (٨٧) منها للعلف والرعي والخطب للوقود والأخشاب للعمارة وإنشاء السفن وغير ذلك من الأعمال التي يطول تعدادها والورق والأزهار والأصول والعروق والفروع

٨٦ (النمل ٦٠)

٨٧ (ضرب الله بذلك مثلا لعودة الحياة بعد الموت)

والصمغ لضروب المصالح لا تخصى أرايت لو وجدت
الثمار مجموعة من الأرض ولم تكن تنبت على هذه السوق
الحاملة لها ما كان يحصل من الخلل في عدم الأخشاب
والخطاب والاتبان وسائر المنافع وان وجد الغذاء بالثمرات
والتفكه بها.

ثم انظر ما جعل الله فيها من البركات حتى صارت الحبة
الواحدة تخلف مائة حبة وأكثر من ذلك وأقل والحكمة في
زيادتها وبركتها حصول الاقتيات وما فضل ادخر للأمر
المهمة والزراعات وذلك في المثال كملك أراد عمارة بلدة
فاعطى أهلها من البذور ما يبذرونه وفضله يتقوتون بها إذا
أدرك زرعهم.

فهذه هي الحكمة التي عم الله بها البلاد وأصلح بها العباد
وكذلك الشجر والنخل تزكو وتتضاعف ثمراتها حتى تكون
من الحبة الواحدة الشيء العظيم ليكون فيه ما يأكله العباد
وبصرفونه في مآربهم ويفضل ما يدخر ويغرس فيدوم جنسه
ويؤمن انقطاعه ولولا نموه وبقاء ما يخلفه لكان ما أصابته
جائحة ينقطع فلا يوجد ما يخلف.

تأمل في هذه الحبوب فإنها تخرج في أوعية تشبه الخرائط
لتصونها وتحفظها إلى أن تشتد وتستحكم كما تخلق البشيمة على
الجنين فأما البزروما أشبهه من الحبوب فإنه يخرج من قشور

صلبه على رؤوسها أمثال الأسنة ليمنع من الطير فانظر كيف حصنت الحيوانات بهذه الحصون وحجبت لئلا يتمكن الطير منها فيصيب بها وان كان يناله منها قوته إلا أن حاجة الأدمي أشد وأولى. تأمل الحكمة في خلق الشجر وأصناف النبات فإنها لما كانت محتاجة إلى الغذاء الدائم كحاجة الحيوانات ولم يخلق فيها حركات تنبعث بها ولا آلات توصل إليها غذاءها جعلت أصولها مركوزة (٨٨) في الأرض تجذب الماء من الأرض فتغذى بها أصولها وما علا من الأغصان والأوراق والثمار فصارت الأرض كالأم المربية لها وصارت أصولها وعروقها كالأفواه الملتقمة لها وكأنها ترضع لتبلغ منها الغذاء كما ترضع أصناف الحيوان من أمهاتها ألم تر إلى عمد الخيم والفسطاط كيف يمتد بالأطناب من كل جانب ليثبت منصبته فلا يسقط ولا يميل فهكذا أمر النبات كله له عروق منتشرة في الأرض ممتدة إلى كل جانب وتمسكه وتقيمه ولولا ذلك لم تثبت الأشجار العالية لا سيما في الرياح العاصفة فانظر إلى حكمة الخالق كيف سبقت حكمة الصناعة واقتدى الناس في أعمالهم بحكمة الله في مصنوعاته.

(٨٨) ثبت بالتجربة العملية اننا لو وضعنا نبتة صغيرة في وضع معكوس (الجذر إلى أعلى والساق إلى أسفل) لشاهدنا ان الجذور تنحني نحو الأرض بينما تنحني الساق إلى أعلى . (الأمة مايو ١٩٨٣)

وتأمل خلق الورق فإنك ترى في الورقة شبه العروق مبثوثة
فمنها غلاظ ممتدة في طولها وعرضها ومنها دقاق تتخلل تلك
الغلاظ منسوجة نسجا دقيقا عجيبا لو كان مما يصنع بأيدي
البشر لما فرغ من ورق شجرة واحدة إلا في مدة طويلة وكان
يحتاج فيه إلى آلات وطول علاج فانظر كيف يخرج منه في المدة
القليلة ما يملأ السهل والجبال ويقاع الأرض بغير آلة ولا
حركة إلا قدرة الباري وإرادته وحكمه . ثم انظر تلك العروق
كيف تتخلل الورق بأسره لتسقيه وتوصل إليه المادة وهي
بمنزلة العروق المبثوثة في بدن الانسان لتوصل الغذاء إلى كل
عضو منه وأما ما غلظ من العروق فإنها تمسك الورق
بصلابتها وقوتها لئلا يتهتك ويتمزق ثم انظر إلى العجم
والنوى والعلقة فيه فإنه جعل في جوف الثمرة ليقوم مقامه إذا
عدم ما يغرس أو عاقه سبب فصار ذلك الشيء النفيس الذي
يخزن في مواضع شتى لعظم الحاجة إليه فإن حدث على الذي
في بعض المواضع حادث وجد منه في موضع آخر ثم في
صلابته يمسك رخاوة الشار ورقتها ولولاه لسرحت وسرح
الفساد إليها قبل إدراكها وفي بعضها حب يؤكل ويستمتع بدهنه
ويستعمل في مصالح .

ثم انظر إلى ما خلق الله تعالى فوق النواة من الرطب وفوق
العجم من العنبة والهيفة التي تخرج عليها وما في ذلك من

الطعم واللذة والاستمتاع للعباد . ثم تأمل خلق الحب والنوى وما أودع فيه من قوة وعجائب كالمودع في الماء الذي يخلق منه الحيوان وهو سر لا يعلم حقيقته إلا الله سبحانه وما علم من ذلك يطول شرحه .

ثم انظر كيف حفظ الحب والنوى بصلافة وخلقت في ظاهره قشرة حتى أنه بسبب ذلك أن سقط في تراب أو غيره لا يفسد سريعا وإذا ادخر لوقت الزراعة بقي محفوظا فصار قشره الخارج حافظا لما في باطنه بمنزلة شيء نفيس عمل له صندوق يحفظه وعندما يوضع في الأرض ويسقى يخرج منه عرق في النوى وغصن في الهواء وكلما ازداد غصنا ازداد عرقا تتقوى به أصل الشجرة وينصرف الغذاء منه إلى الغصن فهي كذلك إذ يتم غصنها قوتها فتكون الفروع محفوظة عن السقوط بالهوى والانكسار بالنقل أو بغيره ويصعد الماء في جذرها إلى أعالي الشجرة فيقسمه الله سبحانه بالقسط وميزان الحق فينصرف للورق غذاء صالح له وللعروق المشتبكة في الأوراق لاتصال الغذاء إلى جوانب الورق ما يليق بغذائها وللثمار غذاء صالح لها وللإقماع واللحاء والأزهار غذاء صالح لكل من ذلك ما يليق به ويصلحه فهو كذلك حتى يكمل في الثمار نموها وطعمها ورائحتها وألوانها المختلفة وحلاوتها وطيبها .

ثم انظر كيف جعل الله سبحانه خروج الأوراق سابقا

خروج الثمار لأن الثمرة ضعيفة عند خروجها تتضرر بحر الشمس وبرد الهواء فكانت الأوراق (89) سائرة لها وصار ما بينها من الفرج لدخول أجزاء من الشمس والهواء لا غنى للثمرة عنها فيحفظها ذلك من المن والعفن وغير ذلك من الفساد.

ثم انظر كيف رتب الباري سبحانه الأشجار والثمار والأزهار وجعلها مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح فاشكالها ما بين طويل وقصير وجليل وحقير وألوانها ما بين أحمر وأبيض وأصفر وأخضر ثم كل لون منها مختلف إلى شديد وصاف ومتوسط وطعومها ما بين حلو وحامض ومر وروائحها إلى عطرات لذيدات مختلفات وقد أوضح الكتاب العزيز من ذلك ما ذكرناه بما يشرح الصدر ويكشف للمتأمل منه كل مستور فانظر ما أودع الباري سبحانه فيها من السر عند النظر إليها فإنها تجلى عن القلوب درها عند مشاهدتها وتشرح الصدور برويتها وتنتعش النفوس لرونق بهجتها وأودع الله سبحانه فيها منافع لا تحصى مختلفة التأثير فمنها ما تقوى به القلوب ومنها أغذية تحفظ الحياة وجعلها مطعومة لذيدة عند تناولها وخلق فيها بزورا لحفظ نوعها تزرع عند جفافه وانفصال وقت نضارتها انظر وتأمل ما في قوله عز وجل :

(89) للأوراق دور في نقل وتكوين العصارة لتغذية النبات

(وشجرة من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للاكلين)*

فاخرج سبحانه فيما بين الحجر والماء زيتا صافيا لذيذا نافعا
كما أخرج اللبن من بين فرث ودم ومن أخرج من النحل شرابا
عسلا مختلفا ألوانه فيه شفاء للناس ولو جمعت هذه الأشياء في
مستقر لكانت مثل الأنهار وكل ذلك لمنافع العباد فانظر ما فيه
من العبرة لذوي الأفكار ثم انظر إلى الماء الصاعد من العروق
الراسخة الحافظة للأعلى من الشجرة وكيف قسم الباري في
غذاء النخلة فقسم للجذر ما يصلح لها وللجريد وما فيه من
السل ما يصلح لها ويناسب جريدها ويرسل للثمرة ما يليق
بها وكذلك الليف الحافظ للأصول مع الثمرة وجعل الثمرة لما
كانت ضعيفة في أول أمرها متراسة متراكمة بعضها فوق
بعض مجموعة في غلاف متقن يحفظها مما يفسدها ويغيرها
حتى إذا قويت صلحت أن تبرز للشمس والهواء فانشق عنها
غلافها على التدريج وهو الذي كان حافظا لها فيصير يفترق
شيئا بعد شيء على قدر ما تتحمله الثمرة من الهواء والشمس
حتى تكمل قوتها فتظهر جميعها حتى ما يضر بها ما يلحقها من
حر وبرد ثم تراها في النضج والطيب إلى بلوغ الغاية المقصودة
منها . فيلتذ حينئذ بأكلها ويمكن الانتفاع بادرارها وتصرف
في المآرب التي هيئت لها اعتبر ذلك في جميع الأشجار فإنك

* المؤمنون 20

ترى فيها من أسباب الحفظ ولطائف الصنع (٩٥) ما يعتبر به كل ذي فهم ولب. فمن ذلك خلق الرمانة وما فيها من غرائب التدبير فانك ترى فيها شحما مركوما في نواصيها غليظ الأسفل رقيق الاعلا كأمثال التلال في تلويته أو البناء الذي وسع أسفله للاستقرار ورقق أعلاه حتى صار مرصوفا رصفا كأنه منضد بالأيدي بل تعجز الأيدي عن ذلك التداخل الذي نظم حبها في الشحم المذكور. وتراه مقسوما أقساما وكل قسم منه مقسوم بلقائف رقيقة منسوجة أعجب نسج والطفه لتحجب حبها حتى لا يلتقي بعضه ببعض فيفسد ولا يلحق البلوغ والنهاية وعليها قشر غليظ يجمع ذلك كله ومن حكمة هذه الصنعة أن حبها لو كان حشوها منه صرفا بغير حواجز لم يمد بعضه بعضا في الغذاء فجعل ذلك الشحم خلاله ليمده بالغذاء ألا ترى أصول الحب كيف هي مركوزة في ذلك الشحم ممدودة منه بعروق رقاق توصل إلى الحب غذاءها وإلى كل حبة غذاءها ومن رقها وضعفها لا تكدر على الأكل ولا تعرف بها. ثم انظر ما يصير من الحلاوة في الحب من أصول

(٩٥) إن طبيعة الأخشاب وقوتها تختلف تبعا لنوع الغابات التي نمت فيها فالأخشاب التي تخرج من غابات المناطق الحارة تمتاز بمتانتها وتستخدم في صناعة الأثاث. وغابات المناطق الباردة يخرج منها أخشاب الرد والصنوبر وكلها أخشاب غير متينة وتستعمل في صناعة الورق كما يوجد أشجار البلوط ومنها يؤخذ الفلين الذي يصنع منه السدادات وقوارب النجاة.

مرة شديدة المرارة قابضة ثم تلك اللفائف على الحب تمسكه
عن الاضطراب وتحفظه ثم حفظ الجميع وغشاه بقشر صلب
شديد القبض والمرارة وقاية له من الآفات .

فان هذا النوع من النبات للعباد به انتفاعات وهو ما بين
غذاء ودواء وتدعو الحاجة إليه في غير زمانه الذي يجنى فيه من
شجره فحفظ على هذه الصفة لذلك . انظر إلى عود الرمانه
الذي هي متعلقة به كيف خلق مثبتا متقنا حتى تستكمل
خلقها فلا تسقط قبل بلوغها الغاية المحتاج إليها وهي من
الثمرة المختصة بالانسان دون غيره من الحيوان . انظر إلى
النبات الممتد على وجه الأرض مثل البطيخ واليقطين وما أشبه
ذلك وما فيه من التدبير فإنه لما كان عود هذا النبات رقيقا ريان
ذا احتياج إلى الماء لا ينبت إلا به جعل ما ينبت به منبسطا على
وجه الأرض فلو كان منتصباً قائماً كغيره من الشجر لما استطاع
حمل هذه الثمار مع طراوة عودها ولينها فكانت تسقط قبل
بلوغها وبلوغ غايتها فهي تمتد على وجه الأرض لبلوغ الغاية
وتحمل الأرض عودها وأصل الشجرة والسقي يمدّها .

وانظر هذه الأصناف كيف لا تخلق إلا في الزمن الصالح
لها ولن تناولها فهي له معونة عند الحاجة إليها ولو أتت في زمان
البرد لنفرت النفوس عنها ولا ضرت بأكثر من يأكلها ثم انظر
إلى النخل لما كانت الأنثى منه تحتاج إلى التلقيح خلق فيها

الذكر الذي تحتاج إليه لذلك حتى صار الذكر في النخل كأنه
الذكر في الحيوان وذلك ليتم خلق ما بزراعته تحفظ أصول هذا
النوع .

ثم انظر ما في النبات من العقاقير النافعة البديعة فواحد
يغور في البدن فيستخرج الفضلات الغليظة وآخر لاجراج المرة
السوداء وآخر للبلغم وآخر للصفراء وآخر لتصريف الريح
وآخر لروائحہ وآخر للمرضى والضعفاء وكل ذلك من الماء
فسبحان من دبر ملكه بأحسن التدبير

باب ما تستشعر به القلوب من العظمة لعلام الغيوب

قال الله العظيم :

(تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وان من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم أنه كان حليماً غفوراً) (91)

وقال تعالى :

(تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض) *

وقال تعالى :

(ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته) *

اعلم وفقنا الله وإياك أن جميع ما تقدم ذكره في هذا الكتاب من بدائع الخلق وعجائب الصنع وما ظهر في مخلوقاته من الحكم آيات بينات وبراهين واضحة ودلائل دالات على جلال بارئها وقدرته ونفوذ مشيئته وظهور عظمته فإنك إذا

91 (الاسراء 44

* الشورى 5

* الرعد 13

نظرت إلى ما هو أدنى إليك وهي نفسك رأيت فيها من العجائب والآيات ما سبق التنبيه عليه وأعظم منه ثم انك إذا نظرت إلى مستقرك وهي الأرض وأجلت فكرك فيها وأطلت النظر في استرسال ذهنك فيها جعل فيها وعليها من جبال شاخحات وما أحيط بها من بحار زاخرات وما جرى فيها من الأنهار وما أنبت فيها من أصناف النباتات والأشجار وما بث فيها من الدواب إلى غير ذلك مما يعتبر به أولو الأبواب .

ثم إذا نظرت إلى سعتها وبعد أكنافها وعلمت عجز الخلائق عن الاحاطة بجميع جهاتها وأطرافها ثم نظرت فيما ذكرته العلماء من نسبة هذه الخلق العظيم إلى السماء وأن الأرض وما فيها بالنسبة إلى السماء كحلقة ملقاة في أرض فلاة وما ذكره النظار من أن الشمس في قدرها تزيد على قدر الأرض مائة ونيفا وستين جزء وأن من الكواكب ما يزيد عن الأرض مائة مرة .

ثم انك ترى هذه النيرات كلها من شمس وقمر ونجوم قد حوتها السموات وهي مركوزة فيها ففكر في السماء الحاوية لهذا القدر العظيم كيف يكون قدرها ثم آنظر كيف ترح الشمس والقمر والنجوم والسماء والجامعة لذلك في حدة عينيك مع صغرها وبهذا يعرف بعد هذا كله منك وعظم ارتقائه ولأجل البعد ترى هذه النيرات صغيرة في رأى العين ثم انظر إلى عظم

حركتها وانت تحبس بها ولا تدركها لبعدها ثم انك لا تشك ان
الفلك يسير في لحظة قدر كوكب فيكون سيره في لحظة قدر
الأرض مائة مرة وأكثر من ذلك وأنت غافل عن ذلك .

ثم فكر في عظم قدر هذه الأشياء واسمع قسم الرب
سبحانه بها في واضح من الكتاب العزيز فقال عز وجل :

(والسماء ذات البروج) * (والسماء والطارق وما ادراك
ما الطارق نجم الثاقب) *

وقال :

(فلا أقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم) (92)

إلى غير ذلك من الآيات ثم ترق بنظرك إلى ما حواه العالم
العلوي من الملائكة وما فيها من الخلق العظيم وما أخبر به
جبريل عليه السلام النبي صلى الله عليه وسلم عن اسرافيل
عليه السلام بقول جبريل فكيف لو رأيت اسرافيل وأن
العرش لعل كاهله وان رجله لفي تخوم الأرض السفلى
وأعظم من هذا كله قوله عز وجل :

* الطارق 1

* البروج 1

(92) الواقعة 75

(وسع كرسيه السموات والأرض) *

فما ظنك بمخلوق وسع هذا الأمر العظيم فارفع نظرك إلى
بارئ الكون العظيم واستدل بهذا الخالق العظيم وعلى جلاله
وقدرته وعلمه ونفوذه مشيئته واتقان حكمته في بريته .

وانظر كيف جميع هذا الصنع العظيم ممسوك بغير عمد تقله
ولا علائق من فوقه ترفعه وتثبته فمن نظر في ملكوت السموات
والأرض ونظر في ذلك بعقله ولبه استفاد بذلك المعرفة بربه
والتعظيم لأمره وليس للمتفكرين إلى غير ذلك سبيل وكلما ردد
العقل الموفق النظر والتفكر في عجائب الصنع وبدائع الخلق
ازداد معرفة ويقينا وإذعانا لبارئه وتعظيما ثم الخلق في ذلك
متفاوتون فكل مثال من ذلك على حسب ما وهبه له من نور
العقل ونور الهداية وأعظم شيء موصل إلى هذه الفوائد المشار
إليها تلاوة الكتاب العزيز وتفهم ما ورد فيه وتدبر آياته مع
ملازمة تقوى الله سبحانه فهذا هو باب المعرفة بالله واليقين
بما عند الله .

ثم انظر وتأمل ما نشير إليه فإنك علمت على الجملة أن
رسول الله صلى الله وسلم أسري به إلى أن بلغ المنتهى ورأى
من آيات ربه الكبرى وأطلع على ملكوت ربه وتحقق أمر الآخرة

والأولى ودنا من ربه حتى كان قاب قوسين أو أدنى فما ظنك
بعلم من شرف بهذا المعنى ثم أمر بأن يقول (وقل رب زدني
علما) * وعلمك بمعرفته ومن عليك بنور هدايته واستعملنا
وإياك بطاعته وجعلنا بكرمه أجمعين من أهل ولايته بمنه وكرمه
وجوده أنه ولي ذلك . تم كتاب الحكمة في مخلوقات الله عز
وجل سبحانه وتعالى والحمد لله رب العالمين وصلى الله على
سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم .

الفهرس



الصفحة

5	ترجمة المؤلف
11	مقدمة المؤلف
13	باب التفكير في خلق السماء وفي هذا العالم
16	باب في حكمة خلق الشمس
22	باب في حكمة خلق القمر والكواكب
28	باب في حكمة خلق الأرض
36	باب في حكمة خلق البحر
40	باب في حكمة خلق الماء
43	باب الحكمة في خلق الهواء
47	باب في حكمة خلق النار
50	باب في حكمة خلق الانسان
82	باب في حكمة خلق الطير
90	باب في حكمة خلق البهائم
	باب في حكمة خلق النحل والنمل والعنكبوت
100	ودود القز والذباب وغير ذلك
109	باب في حكمة خلق السمك وما تضمن خلقها من الحكم
113	باب في حكمة خلق النبات وما فيه من عجائب حكمة الله تعالى
123	باب ما تستشعر به القلوب من العظمة لعلام الغيوب